أعلام العرب

٨٩

عمر فاخوري

أديب الإبداع والجماهير

بقلم : وداد سكاكيني

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠


١٨٩٥
عمر فاخوري
١٩٤٦

الفصل الاول

منبت عمر وأسرته

أنبتت بيروت فتاها (عمر فاخورى) ١٨٩٥ م ، وكان لهـذه العريقة فى حضارتها وثقافتها ـ الجاثمة بدلال واعتزاز على ء الحوض الأبيض ـ أثر عميق فى حياة عمر وسيرته وأدبه ، ‍مل من البحر عمقا وانطلاقا ، ومن الجبل الملهم الذى ترتفع ‍تسطع وتمتد سفوحه نضرة وقوة وتساميا ، فمن دأب لبنان ‍تص نوابغه بطوابع من صـنعه وابداعه ، وأن يعدهم لأيام ‍وأحداث طارئة ، فاذا ضاق على نفوسهم الكبيرة وطموحهم فلتوا بكفاحهم وآمالهم الى أقصى الأرض ، لكن قلوبهم الممتلئة والحنين تبقى عالقة بتراب الوطن وطبيعته وتراثه .

‍وقد عاش (عمر فاخورى) فى حماه منذ أشرف هذا العصر ‍الم بكل ما فيه من تبديل وتعديل فى مظاهره وأطواره ، ومن ‍الحياة فيه وملابسات الفكر والسياسة ، فرافق عمر مدينته بما طرأ عليها من تغير وتجدد وازدياد فى العمران والسكان، عمر من الحى البيروتى القديم لهجته وحماسته ، وكان يرى ملتقى الشرق بالغرب، فالبحر أمامه يرفده بالحضارة الغربية،

الحديث ، وقد وجد عمر نفسه منذ تفتح وعيه وصباه أنه يعيش فى مدينة العلم والعلماء ، فان فيها جامعتين : اليسوعية والأمريكية ، وعديدا من المعاهد والمدارس ، أقامتها همـــم الرواد والمفكرين من المصلحين السابقين، فيتوافد عليها فى الساحل والجبل افرادوأفواج من طلاب الثقافة العربية والغربية والاختصاص بناحية من نواحى العلم والفنون ، فكان عمر على الحداثة وفى قوة الشباب عالق النظر والفكر بما نشأ فى مدينته من حركات تحررية وحضارية ، تتبعها فى أسبابها وأطوارها ، وشارك فيما وافق أشواقه ومنازعه فى تلك الحركات والانتفاضات .

واذا كان علماء الاجتماع يجعلون للبيئة والنشأة الأثر الأول فى تكوين الشخصية ، فان الدراسات الأدبية والجامعية حتى المتطرفة منها على أيدى (ايليوت) وأمثاله لم تستطع أن تزحزح نظريات (تين) عن مكانتها العلمية والتجريبية ، فعمر فاخورى اذا درسناه من هذه الناحيةظهر لنا كأنه دوحة نبتت صغيرة، ثم انبسطت فروعها وامتدت ظلالها ، ولا يشعر بالنبت البيروتى وتأثير البيئة فى ذويها وساكنيها الا من استوطن بيروت ولابس حياتها وطبيعتها وبخاصة بيروت القديمة فى أحيائها وشوارعها ، وفى تقاليدها وهمومها ، فان لها طابعا خاصا لا يزال منسحبا عليها حتى اليوم ، ولعل ما يمثل هذا الطابع فى السلوك والمعيشـــــة واللهجة هو الاعتداد بالذات والشجاعة والنخوة الوطنية وتقاليد الحى وزعامته ، ولقد يمر المار فيقرأ لافتات على أبواب الدكاكين أو على الحيطان ، فيها الآيات والأمثال التى تدعو للمروءة والانسانية ، والحفاظ على الشهامة والكرامة .

ولم تستطع الحضـــارة فى هجماتها ونفوذها أن تنتزع من طبيعة الشعب هذه السجايا ، ولم تكن بيروت وحدها هى المتسمة بهذه المياسم ، فان سكان الساحل والجبل قد طبعتهم الأرض والسماء بهذه الطباع وفتحت بيروت صدرها لمن حملوا لها من الجيل مزاياه

فى المعرفة والأدب ، وفى البطولة والكفاح ، ونفحوا المواهب فيها بنفحات من منابته التى لا تفنى ·

وعلى مقدار الأصالة الطبيعية فى البيئة والأسرة يعيش المرء فى هذه الدنيا مصقولا بتربية منزلية وقومية لا تؤذيها الدواهى ، ولا تنال منها العثرات والصدمات، وعمر فاخورى الذى جمع الأصالة البيروتية والخصال اللبنانية كان لايدرى أن الأقدار أرادت أن تجعل منه أديبا مبدعا ورائدا فى الحرية للأمة العربية ، فسار فى تيار القدر والزمن ، ولم تستطع تقاليد الأسرة أن تقف دون مسيره فيما أرادت ·

وكان من عادة الأسرة البيروتية فى الربع الأول من هذا العصر أن يعد الآباء أبناءهم على غرارهم ليكملوا مسيرتهم فى الحرفة أو الوظيفة ، وفى المعيشة أو التجارة ، ولو بلغوا التعليم الجامعى ، وأوتوا مواهب لم تتفتح فيمن سبقهم من الأهل والأقرباء ·

وكان أبو عمر فاخورى عبد الرحمن بن عبد الباسط وسطا من تجار بيروت القديمة ، واذا ذكرنا التجارة فيها بادرت الى الخواطر صور ومآثر فى الأعمال الحرة التى آثرها ذووها على الوظيفة ، وكانت من ذويها مؤازرة قومية فى بناء التربية والتعليم لمختلف الفئات والبيئات فى بيروت ·

وقد مرت عصور على هذه المدينة الحضارية التجارية منذ الحكم التركى الى الانتداب الفرنسى ، كان البيروتى منها اذا تعاطى البيع والشراء قانعا أو طامعا « ملكا على عرشه » كما قال الجاحظ « يسعى اليه ذوو البياعات بأنواع الطاعات » ويتنفس الحرية فى بحبوحة وطمأنينة ، وقل فى التجار من أهلها من لم يتعلم ويتفهم الحياة وما يطرأ عليها فيحسن الأخذ والعطاء بالمرانة والمراس ، وكان اذا تقدم خاطب لحسناء فضل أهلها التاجر على الموظف ···

وما كنت بسبيل هذا الكلام لولا أن منبت عمر ينتمى الى

التجارة أولا ثم الى الافتاء والقضاء على ترادف الأعوام ، وقد عاش عمر فى بيئته منطويا على سجيته وحقيقته فى الشباب ، مترصد السوانح للانطلاق ، وما كان أشق على أبيه عبد الرحمن أن يرى ولده عمر متبرما لا يألف التجارة ولا يرضى بمزاولتها معاونا ومتمرسا قبل أن يحل محله فى الدكان ، وقد جرب فى صباه كرها البيع حتى فر منه لأن التجارة تخالف طبعه ومزاجه ، فانصرف الى المدرسة التى كانت تعده لما ساير هواه وما ترتقب منه الأيام .

وكان ذوو التجارة القديمة فى بيروت كأمثالهم فى دمشق من أهل العلم والدين على الأصطلاح القديم ، وبينهم ذوو العمائم الصفر « الأغبانى » الذين لم تشغلهم أعمالهم اليومية عن موارد العلم فى بيوت المشايخ من الفقهاء والمفكرين ، وما كانت تخلو منازل هؤلاء من خزائن الكتب الموروثة والمخطوطة ، وأبو عمر فاخورى التاجر المتواضع كان من الأتقياء وأهل الافتاء ود لو أن ابنه عمر يعيد سيرة جده مفتى بيروت ، لكن عمر ما استساغ ثقافة الجدود ، فان روح العصر كانت تحفزه لما خلق له فى الحياة الفكرية والوطنية، ولكم عبر عمر فى مذكراته وهو طالب متفتح الوعى والذكاء والشباب عن أسفه لتعنت والديه فى تربيته واعداده لمستقبله وعن ضيقه بالقيود التى فرضت عليه ، ومنها حدود السهر الا مع كتبه وفى منزله، وكان عمر الطالب الظمآن يؤثر السهر مع رفاقه، فعد تشدد والديه تعسفا واجحافا بحريته ، وأن والده لا يدرك أمرا مما كان يشغل باله ، ولا يعبأ بشىء من ذلك ، وكان أبوه أحيانا يهدده ويتوعده فيزداد عمر سخطا صامتا ويعزو ما يعتريه من سوداوية المزاج الى حدة فى طبع أبيه ، لكنه كان يكسرها بالصمت والصبر ، وأبوه نفسه علمه الصبر ، الصبر العملى ، فذكر عمر فى مقال عن ذكرياته : أن والده عبد الرحمن فاخورى كان يعرف مدرستين تعلمان الصبر لا ثالثة لهما : هناك مدرسة الصبر العليا ، وهو دكان

الحلاق الثرثار فى الصيف ، بين موسى مسلطة وذباب ملحاح ، وهناك أيضا مدرسة الصبر الابتدائية ، وهو صيد السمك بالصنارة أيام النحس التى لا تعرف الا بالتجربة ، وبعد فوات الاوان ، ولعله لهذا ، كى يعمى الصبر ، كان يرسلنى وقتا بعد وقت ، لى مدرسته الابتدائيه ، فيأذن لى بمرافقه جارنا الصياد الى مقر عمله ، على الصخرة القائمة فى أقصى الميناء القديم ، عند فكها الشرقى .. كنت أجلس ثمة ساعات طوالا ، كالصنم لا حراك به، مخافة ان يطرد ظلى على صفحة الماء سمكه تكاد لسرعه اللف والدوران حول الصناره اللدود ، أن تكون وهمية ، وكان صاحبى لا ينبس ببنت شفة كأن الصمت فيه طبيعة ثانية ، ما خلا كلمات غير نظيفة كان يرسلها بدون تحفظ كلما أكلت الطعم سمكه خبيثه ، والحقت بصنارته الخرفاء اهانة من ذلك النوع الذى لا يغسل عاره الا الخضم الفسيح ، والجزاء الحق من جنس العمل .. وكان الصياد اذا لزمه النحس مدة ، يضيق بى ذرعا فيتململ فوق صخرته ، ثم يرمقنى بالنظر الشزر ، ثم ينتهى أمره بأن يلقى على درسا مطولا فى محبة الأهل وذوى القربى ورفاق اللعب ، قائلا بحدة متصاعدة: « ألم تشتق الى أمك ؟ أليس فى الحى أولاد يلعبون ؟ ألا تذهب للمدرسة ؟ لله درك ، ما أعظم صبرك ! ولا يكف عن السؤال ، حتى يرانى ابتعدت عنه ، وقد فهمت من ذلك الدرس القاسى أن الصياد الخائب يريد أن يقول شيئا واحدا فيه جواب على تلك الأسئلة .. يريد أن يقول لى بصراحة « يا وجه النحس ! لكن كنت أثأر لنفسى ، بأن أدعوه فى سرى : « زريق السماك » الاسم الذى كان أبى يسميه به فيما بيننا ضاحكا .. على أنى لا أعرف له ، فى الحقيقة، اسما آخر .. وظللت زمنا أتساءل عن أصل هذه التسمية ، ثم علمت أن « زريقا السماك » هو من أبطال سيرة على الزيبق المصرى . فقد كان أبى رحمه الله ، مولعا بأن يخلع على نفر من معارفه أمثال

تلك الأسماء المستعارة من قصص العرب وتاريخهم ، فيضفى على أشخاصهم المبتذلة ، حلة أسطورية ·

لقد تصرمت ، منذ ذاك العهد ، أعوام وأعوام ، وما انفك العمران يطرد الصياد الشيخ وقصبته الخرقاء ، من صخرة الى صخرة على ساحل هذه المدينة ، وجدته آخر مرة ، على صخرة فى الجون الصغير المعروف بعين المريسة (١) ، فى ظل المسجد والدور المحيطة به ، لست أزعم أن أستاذى القديم أهل وسهل اذ رآنى ، لا · لكنه استقبلنى ، والحق يقال ، بصبر جميل ·· وكان أول ما ابتدرنى به قوله : « زريق السماك ؟ ·· رحم الله أباك ·· » واتبع بما يشبه الابتسامة ، مكشرا عن فم أعزل من كل سلاح ·

قلت له : عفا الله عما مضى ·· أما الآن ·· وحدثته بما كان من أمرى مع الجاحظ ، وكيف يتهددنى بمصطبة التشهير ، لأنى فى زعمه أعاشر السماكين وآخذ عنهم الأخبار ، فأحشو بها خطى ورسائلى ····

فنظر الى زريق السماك بين مصدق ومكذب ، لكنه لم يتكلف عناء تفكير طويل ، كى يفهم ما ليس يعنيه ، قال لى مختصرا ، قاطعا كل طريق : والآن ماذا تريد منى ، وما شأنى بالجاحظ كما تسميه أو بمصطبته ؟ وما يهمنى من خطبك ورسائلك ؟ أليس لك غير هذا العمل ؟ ·· على أن جاحظك لا يحدثنى بخير ، فلعله من طبقة زريق السماك ــ رحم الله أباك ···

وكأن أبا عمر قد ألهم بشعوره وتدبيره ، بأن مدرسة الصبر هذه ، قد تنفع ولده فى مستقبل حياته ، فكان يسمح له بمرافقة جاره صياد السمك الى الصخرة القائمة فى الميناء البيروتى القديم ، لعله يتعلم من صاحبه الصمت والترقب ، وكانتا من سجايا عمر ، ومعاودة التجربة والكرة بعد الخيبة والبغتة ، أو ليصرف ابنه عن

(١) فى رأس بيروت ·

رفاق اللعب فى الحى ، فكان عمر فى حداثته يجد متعة فى مرافقة الصياد والجلوس ساكتا ساعات طوالا متأملا فى بربرة الصياد وتأففه كلما أكلت الطعم من صنارته سمكة خبيثة وتفلتت من شباكها بسهولة ٠

ولا ريب فى أن لهذه المدرسة العملية وتجاربها فى نشأة عمر أثرا فى سيطرة الصمت على مزاجه السوداوى الموروث كلما فاجأته صدمة فى حياته فيحاورها فى سره ويتلقاها بينه وبين نفسه بفلسفه عمرية فيها الاستخفاف والسخرية أو تلقاء صحبة بدعابة يديرها على نفسه أو يردها الى الحياة وطبيعة العصر ٠

واذا عددنا المؤثرات فى تربية عمر ونظرته للحياة منذ نشأ بين بيته ومدرسته عدنا الى ما كتب عمر بقلمه فى مذكراته وهو طالب متفتح الوعى والشباب ، وحياتى فى هذه الأثناء قاحلة عليها غبرة ، فيها غث وبارد وجامد ، مظلمة لا تبدو فى أفقها الا أنوار شاحبة ٠

وفى سطور غير هذه قال عمر : « نفسى نبتة جافة لا يجرى ماء الحياة فيها، عقيمة من الزهر والثمر والطيب كالبادية التى أنبتتها ٠٠» حتى اذا عرف عمر الصداقة ولقى الصديق انتعشت نفسه كما قال بسلسل صاف رقراق ٠

ويلوح لنا أن صرخة الشباب فى أغواره كانت ضائعة لا يجد فى المنزل والمدرسة ما يهدهد قلقه وشعوره بنفسه ، اذ كان طموحا غير صريح ، ولايرى فى أفقه الا أنوارا شاحبة ، فلما دخلت الصداقة حياته كما دخلتها فى مطالع صباه اليقظة العربية ودبت فى لحمه ودمه وعانقت وجدانه وايمانه أحس عمر أنه حى فى الصداقة وهى حية فيه ، فطرأ على حياته عنصر جديد شبه شعوره اذ ذاك بقطعة من الموسيقا الهادئة ، لا تباغته منها هبات عنيفة فى سكون الليل ٠٠ فكأن غناء يصدر عن نفسه ولا نغم يرد اليها ٠

ولم يلبث عمر أن داخله احساس القلق فى تطلعه الى حقيقة الصـــداقة ، فيمن اختارهم أصدقاء فرافق احساسه الأول حـذر وارتياب ، وهمته فيهما أفكار فلســفية متأثرة بآراء المتشـائمين والناقمين فى الحياة ، وكان يقرأ عمر فى مستهل شبابه نيتشـــه وشوبنهور وغيرهما من فلاســفة السـخط والتمرد ، وكانت هذه الفلسفة القائمة من ظواهر العصر ، لكن رصانته العميقة والتزامه الصمت فى همومه المبكرة كانا يعللانه بالصبر وكظم الغيظ حتى يتحقق له البعاد عما كان فيه من حيرة واضطراب .

وكانت أسرة عمر لا تنكر غلاب طموحه فيسرت له السفر الى باريس لاكمال دراسته وشمله أحد أعمامه بالمعونة ، على أن يعود باجازة الحقوق ضمانة لغده فى المجد الأدبى والعيش الرغيد .

ومن الجدير بالذكر أن أسرة عمر العريقة فى بيروتيتها لم تكن محصورة فى دائرة التجارة والقضاة ، فان تطور العصر والمجتمع جعلها تنطلق الى مجالات علمية وفنية ، فبرز منها رائد القوميـــة والمقاصد الخيرية محمد فاخورى الذى أنقذ عمر فى بوادر حماسـته وتفكيره من براثن الحكم الغادر بالشباب العربى ، ومن رجالها فى الحقوق والرياضيات أخوا عمر وجيه ومواهب ، وقد سبقهما الى الأدب والبيان رائف فاخورى الكاتب البليـغ الذى أنشـــا قصصا مسرحية قبل أن يشيع فنها فى بلاده ، ويبدو أنها بقيت مطوية بعد تمثيلها فى بيروت وطرابلس .

ومن فضليات هذه الأسرة فى المنازل والمجتمع كانت يسر فاخورى المعهن اسما وأبعدهن أثرا وذكرا فى الثقافة والتربية القومية واعداد الجيل الصاعد من فتيات الوطن للحياة اللائقة الفاضلة .

ملامح

من هيئته وخصاله

كان (عمر فاخورى)طويلا نحيلا شابا وكهلا ينوء غيره بما حمل من المواهب والخطوب ، لكنه كان رجلا فى الرجال ، وقد أوتى النفس الكبيرة والشخصية الجذابة ، ولم يستطع هزال جسمه أن يطغى على روحه وطموحه ، فعاش هماما مكافحا يغالب البـــلاء ، وكانت العافية الفكرية والبصيرة الملهمة تشيعان فى حياته قوة لا يأبه معها لهزال أو اعتلال ٠

فاذا تمثلناه اليوم نحن الذين عرفناه فى مرآة الخاطر وملامح الصورة ، لاحت لنا سمرة وجهه فى جلد التصق لحمه بعظمه ، وتألقت من خلف نظارتيه عينان سوداوان تشعان بذكاء حاد ينساب وراء المنظور ، وعلى الرغم من قســـمات وجهه والوقار فى طلعته فان ابتسامته لم تكن تفارق خديه الغائرين وشفتيه المفترتين تارة عن براءة طفل أو عن حنكة فيلسوف ، وقد علت أنامله صفرة من كثرة التدخين ، اذ كانت اللفافة سلواه فى عزلته وبلواه ، وفى مشاغله ومعاناته ، فرافقته حتى فارق الدنيا ، وقد بكر عليه الشيب ، فلما سأله صديقه الشاعر صلاح اللبابيدى ماذا دهاك ؟ أجاب عمر :

ـ هذا جزاء من يعرض عقله على الناس ٠٠٠

وفى أواخر عمره الذى لم يكن طويلا جلل رأسه شيب ناصع غير مخضوب ولا خفيف ، فاذا جاء الشتاء غطاه فى بيريه وقاية من البرد وعلق عصاه فى ساعده ، وقل أن خلا جيبه أو تحت ابطه من جريدة أو كتاب ٠

ولا يحسبن القارىء أن وصف الصورة الظاهرة شيء غريب على عمر فاخوري الاديب ، فانه كان مصورا بالقلم ، وسطوره البليغه ماجت بالمعانى والخواطر كما تموج الألواح الفنية فى خطوطهـــا وألوانها ٠

ولقد أتقن عمر فن التعبير عن ملامح الأشياء والأحياء وكأنه يصور بالريشة والألوان ، وبعد أن يتناول الظاهر يتغلغل فى الباطن ويرتد الى قلمـــه وبيانه تحليلا وتأويلا ، حاملا فيهما قيما جمالية متوهجة بالحياة والابتكار ، قائمة على الأصـــالة والجزالة فى الاداء والتفكير ٠

وكان عمر فاخورى الأديب المرموق يركب الترام فى طريقه الى الوظيفة أو الفسحة على شاطىء البحر فى رأس بيروت ، ولا يعبأ بازدحام الناس والسلال الممتلئة بالفاكهة والبقول ، واذا مشى فى الشارع مضى مهرولا وكأنه يستبق خطاه الى موعد مضروب ، وكذلك كان من الزمن والمحن يضربان لعمر فاخورى كف ميعاد كما قال الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد ، فاذا صادفك فى طريقه وكان يعرفك تريث وشاعت البشاشة فى وجهه فأقبل عليك بالتحيـــة وفيض المودة ، واذا دخلت مجلســـه وقف محتفيا حتى تجلس فيقعد كأنه تمليذ بين يدى أستاذه ، وكم من أناس اذا منوا على قادم بتحية فى مجلسهم نهضوا ربع نهضة وتناولوا السلام بطرف الشفة أو بهز الرأس ، وهؤلاء كان يراهم عمر فاخورى شخوصا من ورق ٠

على أن تواضع عمر فاخورى وهو فى مظهره الأريستقراطى وثقافته الفنية والفكرية ما زاده الا رفعة فى أعين الناس ، الأصدقاء منهم والأعداء على سواء ، وكم فارقه صديق غاضبا فاذا أصبح بادر اليه راضيا ، ودخل حجرته بغتة فيضحك عمر ويرحب بصاحبه الذى خرج من عنده حردان ، وتلمع عيناه من البشاشة والسعادة وهو يقرأ على صديقه آخر نتاج بين يديه ، فاذا أبدى زائره اعجابا

طوى عمر أوراقه مستهزئا بما كتب ، لانه كان يكابد العناء وهو يعد مقاله أو يعبر عن خواطره ، مهتما بالصقل والتنقيح لا تكلفا وتقيدا بل للاتفاق . فالصنعة الأدبية ما كانت لترضى عند عمر بالبصيرة الملهمة والأسلوب المطبوع ، والسهولة القريبة فى دقة التصوير والتعبير الذين يتجليان فى الابداع .

وينظر عمر الى صديقه محيى الدين النصولى(١) وهو يستزيده مما قرأ قائلا : انك يا صاحبى أصغيت لى فضلا منك وتأدبا ... ان هذا الذى قرأته ليس بالأدب ، ان الادب هو الذى يخلد وهو الذى ينقل الى جميع اللغات فيقبل عليه الناس من كل لون ودين .

ولا أنسى جلسة لعمر فاخورى رأيته فيها مع قرينى المحاسنى قبل أن يعاوده المرض ، كان متربعا كأنه الكاتب المصرى المنحوت من الحجر وقد لاح عمر فى طلعة هزيلة يرتسم على ملامحها المتغضنة وجه غاندى ، وكنا نتمثل زعيم الهند فى أشباهه من العرب ، وكان عمر يحبه ويرضيه أن يشبه بهذا الزعيم ، ولولا شعره الشائب النابت على رأسه كأعواد السنابل وما ضاق على صداره وانعقد فى نطاقه من مخطط الثياب لزعمت فيه تناسخ الروح الكبرى فى « المهاتما » الذى كتب عنه عمر فاخورى مقالات ونقل الى العربية فى سيرته كتابا وكأنما أحس فى نفسه مسرى التناظر ووجد فى طبعه النسخة الثانية من طبعة الخالق .

حلفنا على عمر بأن يبقى فى جلسته متربعا اذا كان مستريحا ولا يغير رداءه فقد تحير وكرر اعتذاره وترحيبه، وكان كلبه السلوقى يعس بين المقاعد فيقصيه عنا كلما اقترب (ونبح) ، وأحب عمر أن يكرمنا بفصل من روايته التى كان يكتبها « حنا الميت » فسحب دفترا من تحت المتكأ وقرأ صفحات من الرواية بلهجته البيروتية

(١) الرسالة اللبنانية عام ١٩٥٦ .

المستحبة ، ولا أدرى كيف انساق بالى وخيالى مع قراءة عمر المعبرة المؤثرة حين وصف جنازة « حنا الميت » وكان حنا نفسه ماشيا وراءها مع المشيعين ينتزع نعليه من الأرض وهو سادر فى صمته محنى الرأس ٠

وكم أسفت لأن عمر الروانى فارق الحياة التى أحبها دون أن يكمل طرفته الرائعة « حنا الميت » ولا ندرى الى أى مدى فى ابداعه كان بطاقته تحقيقه لهذا الفن فى أدبنا الحديث ٠

وقد عرف أصدقاء عمر من سجاياه فنين اثنين لازماه فى حياته وهما دقة الانصات والاصغاء ، فهو يستمع أكثر مما يتكلم ، واذا تكلم لم يكن يخلو حديثه من فكرة حرة أو سخرية مرة ، ما أشبهه بحكماء الاغريق الذين كانوا يقفون حياتهم على الجدل والحوار، وكانت الاكاديمية فى أثينا موضع تفتهم وثقافتهم ، لكنهم كانوا جوالين متنقلين يشيعون حكمتهم فى الدروب والأسواق ٠

وكذلك كان عمر فاخورى ذا حكمة وروية : وما كانت حكمته تدريسية نظامية وانما كانت موهبة وفيضا من تجارب الحياة والثقافة ، وقد ربط القدر بين خصاله وفعاله برباط وثيق ، فكان كريم المعرفة والأدب ، كريم اليد والعطاء يؤثر صديقه على نفسه اذا ضاق به الزمن فيسعفه بما يتيسر له ، ولم يؤثر عنه انه ادخر مالا أو وفر معاشا، فهو كساب وهاب كما تقول العامة، ولكم جاءه المساء وجيوبه ملأى فاذا أصبح كانت فارغة لا تشكو لأنها سترتد عند المساء ملأى ، ولو شاء عمر فاخورى أن يجمع مالا لرفع العمائر وابتاع الأصوات وجمع الغلات ، لكنه مشى مع طبعه وخصاله فآثر الأدب فنا وعملا ، وعاش للحياة الفكرية موهوبا واهبا ، حتى تعلق بالشعب وانصرف الى السياسة محاولا أن يجربها من غير ثمن الا المودة والحرية ، ولم يكن يعلم أن السياسة تحرن وتحرد فى بلادنا العربية اذا لم يطعمها صاحبها ، وقد تنفر وتجمح اذا لم يقيدها بسلاسل الذهب ٠

وكان يخيل الى من يراه فى وقاره وصمته وفى معاناته وتكاليفه أنه أريستقراطى معتزل، وعمر نفسه عرف الأريستقراطية والاعتزال، لكنه نضاهما عن منكبيه كما ينضو المرء عن ظهره رداء ثقيلا فى الصيف ، فان عمر فاخورى الذى أنبته بيت كريم الأصل والفعل كان فى تربيته ومعاملته صورة لهذا النماء والاقتداء ، فكان اريستقراطى المظهر لكنه ديمقراطى المعاملة والهدف ، وقد صان نفسه عن التبذل والسوقية وهو يزداد اتصالا بالجماهير وتعلقا بتوجيه وعيها والتعبير عن تطورها وكفاحها ٠

ومهما نعدد من خصال عمر فاخورى الانسان والأديب والسياسى ، فاننا نحار فى أى خصاله أفضل وتبرز بينها مزيه الرأى والشجاعة حتى كأن صديقه المتنبى طبعه بقوله : الرأى قبل شجاعة الشجعان ٠

فكان عمر برأيه وتفكيره يخطط ويسدد ، كأنه مهندس ، ثم يجرى التطبيق والتنفيذ ، ولم تستطع أعين الرصد والحسد أن تنال منه ، فقد فرض توقيره بما أوتى من حقيقة ولباقة فى معاناة الأمور ٠

ولكم كان ينقصه أن يدخل دائرته العقارية ، من الباب الذى تشاركه فيه « دار الكتب الوطنية » فى وطنه بيروت فيعجب لنصيبه فى الوظيفة ويضحك للزمن الذى ألقاه فى سجل العقار ، وضن عليه بسجل الكتاب ، وقد عد الكتاب أعظم حادث فى حياته ، لكن للسياسة أسرارا لم تبق مخبوءة ، فهى تخشى أمثال عمر الذين أعدتهم السخرية والعبقرية لتغيير مفاهيمها ومزالقها ٠ وجعل ممثلها الصادق مرآة صادقة لمن ينوب عنهم أو يكافح من أجلهم أو كوخز الضمير كما قال عمر (١) لمن يتحدى الجماهير فى اندفاعها نحو الحق والحرية والاصلاح ٠

---

(١) من مقال لعمر فاخورى فى « صوت الشعب » عام ١٩٤٣ ٠

دراسته وثقافته

أدرك عمر فاخورى عهد الكتاتيب فى القرية والمدينة وقد عرفها موطنه البيروتى الذى سبق غيره من عواصم العرب الى المدرسة قبل أن تؤسس على قواعد التربية والتعليم ·

ودخل عمر وهو فى سن الحضانة التى تعد ابن الأعوام الستة للمدرسة الحديثة فى أيامنا ـ كتاب « الشيخ عيسى قاسم » على مقربة من بيته ، فتعلم القراءة والكتابة سورا وآيات من القرآن على غرار المدرسة الالزامية المصرية ، ولولا هذه البداية القوية وما تلاها فى المدرسة العربية القومية لما ظهرت فصاحة عمر وقدرته فى الحفظ والفهم والتأويل وسلامة نطقه وأدائه فى الكتابة والخطابة ، ألم يكن لبعض الكتاتيب القديمة أثر بعيد فيما عرف عن أدباء الطليعة التحررية والفكرية وخطباء النهضة المعاصرة من القاء رائع فى العربية وتبعير بليغ ، ومن أساليب أدبية فصيحة لم تعرف عجمة أو ركاكة ، فقد بدأ هؤلاء الرواد فى حفظ القرآن فى الكتاتيب وكانت لرجال ونساء ـ أو فى معاهد الدين واللغة ، وحلقات التفسير والحديث فى الجوامع والمنازل ، فتعودت ألسنتهم وأقلامهم لهجة سليمة وتعبيرا قويما ·

ولما دخل عمر فاخورى «الكلية العثمانية» أو بالأحرى مدرسة الشيخ أحمد عباس الأزهرى (١) كان العصر يحمل انتفاضات قومية فى الشرق والغرب ، وكانت بيروت ودمشق فى ذلك الحين تتجاوبان

(١) مصرى الاصل أزهرى التحصيل ، بيروتى المولد والاقامة غرس فى الشباب العربى النزعة الاستقلالية وقد توفى عام ١٩٢٧ وسميت مدرسته بعده «الكلية الاسلامية » ·

بالفكرة العربية التى ضاقت بذويها السيطرة العثمانية ثم الاتحادية التى عملت على تتريك العرب فخابت فى الأثرة والمكابرة ·

كان عمر فاخورى فى المدرسة مشدود العلاقة والصداقة بالمعلمين والطلاب من صحبه فمن أساتذته فيها كان علامة بيروت مصطفى الغلايينى والطبيب بشير القصار والمربى المثقف يوسف حرفوش وقد حملت الدروس فى الكلية العباسية ، الروح العربية التى وافقت مزاج عمر ونزعته وكانت الأناشيد الحماسية تردد فى الصباح والمساء ، ورفاق صباه ودراسته ينقلون له ما فاته من أخبار الفظائع الاستبدادية وقضايا المجاهدين العرب للحرية والسيادة القومية ، فيتبادلون همسا وخفية ملاحقة السلطة لبعض اخوانهم ممن عرفوا بالسخط على الظالمين ، فيزداد عمر فاخورى الطالب المتحفز حمية وألما ، لكنه يكبت شعوره خشية الاعتقال من الحكم ، والتعنيف من البيت الذى كان ينصحه بألا يؤذى نفسه بهذا الاندفاع ، فهو فى ريعان العمر والحرب مشتعلة والظلم الصارخ يكيد للاحرار والناقمين من الشيوخ والفتيان ·

وكان الشاعر الفتى عمر حمد صديق عمر يترنم بشعره الثائر لدى أترابه ويثير عزم الشباب فيهم والنخوة العربية لكنهم كانوا يخشون المحكمة الظالمة التى ساقت الثوار الى النار فيدارون حماستهم بالانزواء ، ولولا أنهم طلاب مدرسة ناشئون لرمتهم السيطرة فى الجندية التى كانوا يتهربون منها خوفا من أن تلقيهم فى التهلكة ، ولما تخرج عمر فاخورى من الكلية الأزهرية التحق بمكتب الحقوق فى أثناء الحرب ولم يلبث أن أغلقت أبوابه فلجأ الى الجامعة الأمريكية يتعلم الانكليزية ويتفهم أدبها ، ولم تطل دراسته فيها، لكنه استطاع فى هذه الفترة القصيرة ، والثورة العربية تمتد من أفق الى أفق وسنه لا تبلغ العشرين أن يكتب بحثه الأول « كيف ينهض العرب »

قائلا فيه لأبناء شعبه انهم لن يتحرروا ويسودوا الا اذا تمسكوا بقوميتهم العربية ، ولقد سبق بالدعوة من أجلها أعلام الفكر واللغة في لبنان ، فأخذ الشـــعب العربى يتنبه فى كل قطر تظلم وذاق الهوان تحت قيود الاستبداد ، وظهر كتاب عمر فى السوق فتناقلته الأيدى والأذهان بالمطالعة والملاحظة ، حتى عرفت الســـلطة خبره فجمعت نسخه لحرقها وبادر أبو عمر الى بقية النسخ التى وجدها فى بيته فدسها فى صندوق حمله فى الليل الى بئر الشيخ رسلان قريبا من منزله .

على ان عمر الذى ماج فى صدره الغيظ وبكى قلبه وهو يتخيل سميه عمر حمد ورفاقهما يضطهدون ويشردون جزاء عروبتهم الثائرة كظم غيظه مســـايرة لوالديه وأهله لـكنه استطاع أن يخفى بعض النسخ من كتابه فى صندوق مهمل على رف من رفوف الدكان حتى جاء يوم هاج فى عمر الشوق الى بحثه المبكر ففتح الصندوق وسحب منه رزمة الكتب فتفتحت عينا الوالد على ولده بالحنان والرحمة وهو يضمها الى صدره ودعا الله أن يحميه من غدر الظالمين ، على ان كتاب عمر ضاع بين سمع الارض وبصرها فى ذلك الحين ولم تبـــق منه نسخة الى اليوم . (١)

ولم تنقطع دراسة عمر فى تلك المرحلة الثقيلة خشية الجندية الغاشمة ، فانتقل عام ١٩١٥ الى المعهد الطبى العثمانى ملتحقا بقسم الصيدلة وكان هذا المعهد يمد الحرب القائمة بالاطباء ولم يكن هوى عمر فى التشريح والحشرات ولا فى التحليل والعلاج ، وانمـــا لاذ بدراسة الصيدلة وهو يمارس التعليم فى بعض المدارس الاهلية هربا من زجه فى الحرب وارساله الى جبهة القتال جنديا مغلوبا على أمره ، فلمـــا انتهت الحرب اتجه عمر الى الصحافة ناشرا مقالاته

(١) نشرت مجلة الفكر الجديد فى بيروت عام ١٩٦٨ فصولا زعمت أنهـــا من هذا الكتاب

التحررية فى جريدة الحقيقة البيروتية وغيرها بتوقيع مسلم ديمقراطى متهكما على سياسة الحلفاء الذين وعدوا العرب بتأييد مطـالبهم فى الحرية والاستقلال ثم غدروا بهم ، وكاد اليأس أن يدرك عمر فاخورى الثائر الناقم لولا أن الأمل فيه كان يتجدد باستقلال سورية ودعوته لدمشق لكى يشارك على ضفاف بردى فى تحرير «العاصمة» .

غير أن الفرحة لم تطل فقد حمل عام ١٩٢٠ لسورية ولبنان حكم الانتداب ، فاسودت الدنيا فى نظر عمر وتفكيره ، ولم ينقذه من القنوط غير السفر الى باريس لدراسة الحقوق مستعينا بأحد أعمامه على تكاليف الانطلاق وقد كتب عمر فى مذكراته الخـاصة قائلا : « أعجل الله سفرى الى باريس وبعدى عن هـذه الديار حتى لا يقع ما لا قبل لى به ، الامان الامان .. ألقيت سيفى .. انهزمت قبل الجلاد .. »

ويبدو ان عمر كان ملاحقا من قبل السلطة الانتدابية فقيل له يوما ان رجال التـحرى(١) لا يكفون عن تتبع خطاك فاحذرهم .. وكان جوابه والسخرية لا تفارقه فى الشـدة : أعرف ذلك وأشعر أنهم ألصق بى من المصلى بحذائه ..

وفى باريس عاش عمر ثلاث سنوات يدرس الحقوق متبرما ولكنه ثابر على دراسة الآداب والعلوم السياسية فى جامعة السوربون راضيا ، وكان شبيها بالاديب المصرى توفيق الحكيم الذى سافر الى باريس لدراسة القانون وهو كاره هذه الدراسة متعلق بالادب الذى كان يفضله عمر فاخورى مثله ، وكان أديب بيروت موفقا فى دراسته الجامعية ، فان الحكيم قد انصرف الى الحياة الفنية والفكرية وعكف على المسرح والمسرحيات ، وكان قبل سفره من مصر يكتبها ويقدمها للتمثيل ، أما عمر فاخورى فكان يوزع وقته فى باريس بين الادب والحقوق والسياسة واستطاع بالمثـابرة والحرص على رضا الذى

(١) الامن العام أو المباحث والمخابرات فى الاصطلاح الحديث .

أرسله من بيروت للدراسة أن يجمع بين ما يرضي نفسه ولا يخيب أمل عمه وقد انكب في باريس على أعظم الآثار الفكرية العالمية فدرسها بشوق ونهم .

وكان أناتول فرانس أديب الحرية والثورة أحب المفكرين الفرنسيين الى عمر فسعى اليه وعرفه بذاته ومؤلفاته ، ورافق نخبة من نوابغ السوريين واللبنانيين في باريس، فكانت الغربة والسياسة تجمعهم من حين الى حين وقد استخلص منهم عمر بعض الاصدقاء للسكنى والصحبة منهم محمد رستم حيدر واحسان الشريف ورئيف أبو اللمع وحلمي البارودي وغيرهم .

وقد ضمه الفندق الذي حل فيه الى الشاعر البيروتي صلاح اللبابيدي عام ١٩٢٣ فرافقه الى الحدائق والمتاحف وكانا ينتبذان ناحية في منتزه جميل ليقرآ في ديوان «الحسن بن هاني» فاذا مر بهم الباريسيون وقفوا يستمعون لهما وهما متلهيان عنهم مأخوذان بشعر النواسي ، وكانت أيام عمر في باريس أجمل أيام في حياته وقد تمثله رفيقه اللبابيدي على بعد الشقة بينهما وبين تلك الفترة واقفا في ساحة من الساحات الكبرى أو في متحف من المتاحف أو متأملا في عظمة « برج ايفل » وكأنه مسحور بروعة الفن ، فاذا تصور عمر أنه مفارق يوما هذه المباهج تألم ، وتجسم الأسى في قلبه كلما ودع زميلا عائدا الى الوطن فتلفت الى الواقفين معزيا « عظم الله أجركم » .

وأخذ يعد الايام التي كان يرجو أن تطول قبل الرجوع الى الوطن ، على ان عمر فاخوري الهائم في باريس لم تشغله هذه الحسناء ولياليها الحافلة بالحب والفن والجمال عما أخذت به نفسه من شئون السياسة والحرية فشارك بعض زملائه في تأسيس الجمعية العربية السورية ، وكان مع رفاقه الطلاب يدرسون المذاهب الفكرية والتحررية ويطول الحوار بينهم حول هذه المذاهب ــ والتيارات التي أخذت تتسلل الى البلاد العربية مع أشتات الثقافة واللغات .

وفى باريس عرف عمر فاخورى ندوات الفن والنقــد والآراء الاشـــتراكية ، واستمع لكبار الجــامعيين والمستشرقين محــدثين ومحاضرين ، حتى اذا امتلأ قلبه وفرغ جيبه ارتد الى منبته بيروت عام ١٩٢٤ فرأى عمر أن يعود للنضال السياسى والفكرى فى الصحافة فاتجــه لدمشق حيث كانت الصحف الوطنية والقــومية تتصدى للســياسة وقضــايا التطور والتحرر فآثر عمر جريدة صــديقه الفلسطينى الأصل أحمد شاكر الكرمى منشىء «الميزان» وكانت هذه الصحيفة الادبية التقدمية فاتحة ثورة فى الحركة الفــكرية المعاصرة والنقد التهكمى اللاذع ، ولم يطل عمر الكرمى فعاد عمر الى بيروت وقد ذاع صيته فى الادب الحديث لكنه ارتد بعــد حين الى باريس للحصول على الاجازة الحقوقية اذ فاتته فى المرة الاولى ٠

هذه لمحات من دراسة عمر فاخورى ، من « الكتاب » الى المعاهد والجامعات فى بيروت وباريس ٠

أما ثقافته فكانت موسوعة مترامية الأطراف جمعت بين القديم والحديث فى الشرق والغرب ، ولم تقف عنــد حد أو تتخلف فى مسيرها عن الزمن ، فان عمر المطبوع على التطور منذ بدأ دراسته فى بيروت كان مفهوما بالكتاب والدارسة ، لا بالطعام والشراب ، وقد ينطبق عليه شطر من المثل القائل : منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » وكان عمر فاخورى زاهدا فى المال ، وجدوى هذا النهم الفكرى لم تكن تخمة أو طفرة وانما كانت تألقا متجددا وتوقــدا لا تنطفىء شعلته على ترادف السنين ٠

ولئن تصور الشــعراء والرياضيون أن شــعلة العبقرية من الاولمبية لا تخمــد أبد الدنيــا ويقتبس منها كل فكر ورأى ، فان الاشــعاع الذى بعثه الخالق فى مواهب عمر فاخورى بقى متوهجا حتى غاب عن الوجود ، وبقيت هذه الشــعلة تتــألق فى سطوره وآثاره ، وان تحليلا ضئيلا لبعض مقــالاته الفكرية والنقدية يدل

دلالة واضحة على اتساع ثقافته وتعمقه فى الدراسة والمعرفة ·

ولا يبعد المثقف الكبير عن التاجر الملىء فكلاهما يستعمل عملته. وكما ان التاجر لا يستطيع أن يدير التجارة الا برأس المال ، كذلك المثقف الكبير لا يتوقف عن تنمية حصيلته وخبرته وكانت ثقافة عمر شبيهة بما عند الصيدلى من عقاقير على رفوفه وفى خزائنه، وقد درس الصيدلة مدة فكانت رمية هذا المثل من غير رام ·

ولهذا اختصه المجمع العلمى العربى فى دمشق بتقدير واهتمام فاختاره عام ١٩٢٧ عضوا مؤازرا ومعوانا على القيام بمهمته فازداد اهتمام عمر بآثار الفكر واللغة والتحقيق ، ومضى فى انعام نفسه الى حلب مع مستشرق كبير ساعده بضعة أشهر فى البحث عن خصائص الشرق وعاداته وكان هدف المستشرق مواصلة تنقيبه عن آثار الحثيين فى «قره قمش» و «تل حلف» ، ولم يكن عمر فاخورى معنيا بالآثار الا للثقافة ومساعدة صديقه المستشرق الذى عاد من ديار الشام ليضع كتابا عن الحياة العربيـة وتقاليدها فكتب عمر أكثر فصوله ، وفى خلال تجواله بالشمال السورى كثر تردده الى مكتبات حلب وعنيت مجلة « الحديث » بكثير من مقالاته ، كما تلقت مثلها مجلة «الكشاف» فى بيروت على أمل المشاركة فى تحريرها للكشفية، لكن عمر استطاع أن يزيد فى قوتها فكانت مقالاته نقدية وفكرية ، فتفتحت الأذهان والأعين على أدب حى حديث لا يقل قيمة وأثرا عما جاء فى مقالات الأعلام من أدباء الغرب المعاصرين ، وقد تناول عمر فى أدبه هذا قضايا خطيرة فى الحياة والابداع ، فأدرك المثقفون أنهم أمام مثقف كبير ورد أشتات الينابيع حتى ارتوى وسكب من فيضه فى أفكاره التحررية ·

وقد صدق سمى عمر وصديقه الدكتور عمر فروخ بقوله فى ذكراه العاشرة : كان الجاحظ يرى أن الاديب يجب أن يكون ملما بسبعين فنا من فنون المعرفة تبدأ بقواعد اللغة والبلاغة والشعر ثم

تنتهى قبل أن تصل الى السبعين بالطب والفلك والموسيقا، والجاحظ فى هـــذا على حق الى حد ما ، غير أن عمر فاخورى يرد فى بعض مقالاته هذا الرأى ويرى أن الاديب حقا من كان على اتصال دائم يقظ بهذا الوجود .. لا كما عرفته عصور الصناعة راوية للشعر ، حافظا للأمثال محيطا بالاخبار ، آخذ من كل فن بخبر (١) .

وما يكاد القارىء يتتبع مقالا واحدا لعمر فاخورى حتى يدرك أن هذا الاديب الموسوعى الثقافة والفكر كان يلم بأكثر من سبعين فنــا من فنون المعرفة التى عناها الجــاحظ ثم يتجاوزها الى فنون الادب الغربية وبخاصة الفرنسية ، مما لم يعرف الجاحظ ليؤلف بينها مقالا جامعا بين روعة الموضوع والاسلوب .

وعمر فاخورى نفسه وجد الادباء أمثـــاله أوسع اطلاعا على تراثهم وروائع الغرب وأصـــح فهما لحقيقة الادب ومقـــاييسه من الاقدمين ..

واذا كان الالمام بفنون المعرفة مطلوبا فى خصائص الاديب، فان التنســـيق بينها هو الذى يدل على طابع الاديب ومقدرته ، وهذا ما تأتى لعمر فاخورى فى ابداعه الذى ألف فيــه بين تراث الشرق والغرب تأليفا رائعا يلمحه القــارىء فى دقة الملاحظة التى تكتشف مواطن الجمال فى التعبير وتدل على أماكن الربط بين لفتات الفكر الوثاب فى تهكم هادىء يخلق من السكينة جمالا لا تستطيع العين أن تلمح شيئا منه فى الحركات الهائجة والعزائم المجهودة (٢) .

ولئن درس عمر فاخورى تراث العرب فى بدائع شـــعره ونثره وتعمق فى أصول الأدب والبيان فانه لم يكن مشدودا الى هذا التراث بمقدار ما كان مشدودا الى أدب العصر وثقافته وفنـــونه . وبقى تعلقه بأدب الغرب يزداد بازدياد تطوره ومظاهره وعاش عمر بين

---

(١) الفصول الاربعة لعمر فاخورى .

(٢) من كلام الدكتور عمر فروخ فى الذكرى العاشرة لعمر فاخورى .

أعلامه الغابرين والحاضرين فى شخصياتهم ومؤلفاتهم ، وقد استطاع أن يمزج بين الثقافتين العربية والغربية بكأس واحدة روية .

وإذا نظرنا الى أفذاذ الفكر الحديث فى أمتنا الصاعدة وجدناهم من الذين جمعوا بين الثقافتين ، ولم يقنعوا بالقليل ولا بالقديم وحده أو الجديد ، والعقاد وطه وحسين والشهابى والأمير مصطفى وعمر فروخ وسهير القلماوى وعبد الرحمن صدقى وكرم ملحم كرم وانداهم من بناة الحياة الفكرية فى مصر والبلاد العربية ، عرفوا باتساع مواهبهم وخصائصهم جمع كل منهم بين ثقافة الشرق والغرب ، وإذا كانت قولة أحد الحكماء « التاريخ يعيد نفسه صحيحة » فان ما اكتسب العرب من تمازج الثقافة الاغريقية بالعربية منذ عصر المأمون كان ذا أثر وجدوى فى الفكر والتأليف والترجمة .

ولولا تلك اللمسات السحرية من الفكر اليونانى لما أفاضت العقول العربية بالفلسفة الاسلامية والنزعات الجدلية .

ولئن حرم العرب أدب اليونان القديم فان الحركات الفكرية فى عصرنا تناولت من ثقافة الغرب كل نتاج فى الأدب والفن والفلسفة وهذه الظاهرة المترامية على آماد الغرب من شرقنا العربى لا يمكن أن تدخل الضيم على تفكيرنا الحديث على الرغم من الغزو الفكرى المريب الذى يدعم الاستعمار وعمر فاخورى الذى تلقى ثقافته الحقوقية والفكرية من الغرب عرف مواقع الفائدة والمتعة فى مزاج هذه الثقافة فتناول منها ما ينفع واجتنب ما يؤذى لأنه أوتى البصيرة الملهمة والفكر الناضج فعب من ثقافة الغرب ولا أقول ارتوى ، بل كان يزيده ظمأ الى كل جديد مفيد منها ، حتى ظهر تأثره بما أفاد واضحا فى مقالاته وآرائه ، وما كانت الا سابقة الأيام فى مطالعها المبكرة لأن بلادنا العربية التى شغلها النضال الوطنى للحرية والاستقلال كانت تهب عليها من حين الى حين مذاهب الفكر والسياسة

والاجتماع فتتناولها بعض الأقلام بالدراسة العابرة او النقد الجانبى ، أما عمر فاخورى فقد عاش فى هذه التيارات ومشى معها دون أن يعاكسها أو يتأبى عليها شأن بعض المتعنتين الذين حرصوا على القديم ولم يتغيروا فى التفكير أو الذين اندفعوا دون تمحيص .

ولم يكن عمر فاخورى الذى تلقى دراسة مكينة فى العربية والفرنسية وعرف بعض اللغات الأجنبية مثقفا فحسب بل كان مثقفا كبيرا أفاد أدبه من هذه الثقافة الموضوعية ، وجعله متفوقا متالقا ، وما كانت ثقافته المتجددة لتنام بين دفتى الكتاب وتقنع بالسطور والقرطاس ، وانما كانت وسيلة لا غاية جعلته يعيش فى المجتمع ويشعر انه من الشعب وللشعب .

واذا كانت كلمة الثقافة التى حيرت المفسرين والمعجميين بمعانيها لانها غير محددة فان عمر فاخورى المثقف الكبير قد أعطى الوجود الفكرى الحديث مثالا صادقا من تفسير الثقافة الحبة بشخصيته وأدبه واتصاله بحقائق الوجود وحوادثه المتعاقبة .

الفصل الثانى

عمر فاخورى

فى عصره ووطنه

يعد النصف الأول من هذا القرن عصر الثورة العربية والتحرر الوطنى ، بكل ما حملت هذه الكلمات من الصور والمعانى والأهداف وان بدرت الانتفاضات القومية المبكرة مع أعقاب العصر الماضى ثم اشتدت وتعددت فى أكثر البلاد العربيـــة وتمثلت فى مكافحة الاستعمار على اختلاف اشكاله وأســـمائه ، وكان صـدى الثورة والحركات التحررية يتردد فى الآفاق ويتجاوب بين رواد الفكرة العربية الذين سبقوا من المنابت اللبنانية والسورية الى التنادى من أجلهـا بعد أن ضاقوا بالسيطرة العثمانية واستبدادها بالشعب الذى رزح طويلا تحت أوزارها ، حتى ازدادت هذه السـيطرة بازدياد الوعى القومى ومطالبته بالحرية والعدالة ، فشرد الحكم الغاشم فى أثناء الحرب العالمية الأولى ذوى المطالب الوطنية من الأعيان والمفكرين ، وطرح كبارهم فى المنافى والسجون ، وعلقت السيطرة الحاقدة فى ساحات بيروت ودمشق عام ١٩١٦ و١٩١٧ مشانق الأحرار الذين كانوا يسعون الى سيادة بلادهم واستقلالها ، بعد أن خابت آمالهم ونصائحهم فى تعديل الحكم وتقويمه .

وكانت مصر التى ابتليت باحتلال بعد احتلال وكابدت الحيرة طويلا بين ارتباط شكلى بدار الخلافة ، ودوران حول نفسها مستجيبة

للدعوة القائلة « مصر للمصريين » وبين تباعة لدار المندوب السامى ممثل الاحتلال الانكليزى ، تعيش مرهقة فى كفاحها ومتاعبها وتثور من حين الى حين بأعداء حريتها وحقوقها حتى هبت عام ١٩١٩ على اختلاف هيئاتها وفئاتها لمناوأة الغاصبين الذين اضطهدوا المصريين واستعان استعمارهم بالتفاوت بين الناس فى المعيشة والوعى والاتجاه على تثبيت مطامعهم ونفوذهم ، فاذا عادت الثورة الى أشد مما كانت ضد الاحتلال على ممثلوه المصريين بالمفاوضات المطولة والمعاهدات المكررة لكن أسباب اليقظة والنقمة وصيحات المكافحين والمصلحين ألهبت فى الشعب مشاعر القومية والوطنية وعزمه على دحر الاستعمار ومناوأة أعوانه ومنفذيه .

وفى سورية التى لم تنعم طويلا باستقلالها (١) بعد الحرب الاولى كانت الانتفاضات ـ التحررية والقومية لا تفتر ولا تهدأ ضد الانتداب الذى اقتحم أرضها بالغصب والحيلة ، فصدته بكل ما أوتيت من شجاعة وايمان وأقامت دليل الفداء والاباء فى ضواحى دمشق بميسلون عام ١٩٢٠ حيث قاومت الذين هاجموا بسلاح الغدر والعدوان الشعب برجاله ونسائه وجيشه الاعزل الا من الوطنية والبطولة ، قد هب للكفاح ولم يدخل الغاصبون بلاده الا عنوة وعسفا ، حتى غدت قضايا الحرية والعروبة بين السوريين والحكم الانتدابى نضالا طويلا كان يشرد رجاله ويهدد أبطاله بالموت ، وقد جعل الأطراف والجنبات دويلات وقطائع وأنبت فى بعض جبالها ونواحيها اقليمية ومذهبية ، لكن سورية المتماسكة بحقيقتها وعروبتها لم تنحرف عن وجهتها وفى كفاحها ، وكانت غضبتها الكبرى عام ١٩٢٥ ـ ٩٢٦ على أشرار الانتداب وغاصبى الحرية حديث العالم فى ثورتها الشعبية ومضيها فى النضال .

---

(١) دام زهاء عامين من ٥/١٠/٩١٨ ـ ٢٤/٧/٩٢٠ م .

وفى جنوب الشام على الاصطلاح القديم كانت فلسطين هدفا بعيدا للمستعمرين المسيرين ، وقد مهدوا لمن جاءوا بعدهم عام ١٩٤٧ موعودين بوطن الفلسطينيين ، قدموه هدية للصهيونية التى تبناها الاستعمار وجعلها وسيلة لضرب العرب فى تحررهم من نفوذه ، فبنت الصهيونية بالخديعة لغدها وقهرت أصحاب الوطن الذين ضاقوا بالمستعمر الغادر وهم فى قبضته يعد لهم سوء المصير.

ولم تهدأ ثورة العراق من أجل الحرية والاستقلال ، فمنذ ألقى الاحتلال الاجنبى شباكه وأشواكه كان العراقيون فى صراع مع أعداء سيادتهم وحقوقهم ولم يسلم الا القليل من النفوذ الاستعمارى فى البلاد العربية .

وقد اختلف أمر المحتلين فى لبنان بعد الحرب العالمية الاولى ، بعد ان قاومهم الجنوب وبعض الشطوط زمنا ، فان من تلقوا ثقافة الانتداب من اللبنانيين وآمنوا بأهداف الثورة الفرنسية حسبوا أن الاحتلال سيحقق هذه الأهداف فى بلادهم ويتيح لأهلها أن يسودوا فى رعايته المؤقتة فيمهدوا للاستقلال ، لكن روح الاستعمار خيبت الأمل فيما اصطنعت لمآربها فقد جزأت الأرض الطبيعة وفصلت الجار عن الجار ، وضخمت لبنان الذى كان ذا امتياز قديم بالحكم والاستقلال فى عهد العثمانيين فحذفت سلطة الاحتلال من تخومه وأضافت اليه ما كان متصلا بغيره وقد غدت هذه السلطة المرجع الأعلى فى السياسة التى دارت على لبنان بالتفريق بين العناصر والطوائف وبين الحركات التحررية واقصاء الشعب عن ثقافته العربية ، فبقى لبنان من العشرين فى هذا العصر الى الاربعين واقفا على سياسته كما قال عمر فاخورى وقوف شاعر على الأطلال بينما كانت الدنيا تدور والأقطار المجاورة تسير .. (١) فان بعض اللبنانيين الذين ذاقوا الويل فى ظلال

---

(١) ١٠٧ الحقيقة اللبنانية .

الحكم العثمانى قنعوا بالحكم الاجنبى الذى اطعمهم من خيرات بلادهم وآمنهم حينا من نفسه . فأحبوه وتعلقوا بلغته وحمايته ، أما الجناح الآخر فى لبنان فكان يشعر بالغضاضة والاجحاف فى هذا الانتداب الذى مزق وفرق بقفاز من حرير ، ويرجو أن يتلاقى جناحان عند الحقيقة والاخاء فى تحرير الوطن من كل ما يعوق سيادته وانطلاقه فلبنان منذ كان لم يقف تلقاء الحرية والحضارة منقبضا أو منطويا على نفسه ، فبابه مفتوح على مصراعيه للأبيض المتوسط وظهره مشدود بأصالته فى القومية واللغة والتراث ، الى تاريخ الشرق ، فلماذا يبقى أحد جناحيه مؤثرا الدوران على ذاته ، يخشى أية صداقة أو علاقة باخوته فى العقيدة والمودة وجيرته فى الأرض ، ولهذا كان أكثر اللبنانيين المؤمنين بحقيقة دورهم فى رسالة الفكر والحضارة لا يتحرجون من التمرس بأساليب مستحدثة تجمعهم على الوحدة الوطنية والألفة الباقية .

وكان عمر فاخورى الذى تلقى ثقافته الفكرية وآراءه التحررية فى عاصمة المحتلين بلاده من هؤلاء اللبنانيين الذين يريدون مقيمين ومغتربين ــ أن يبقى لبنان على عهده وسجاياه سباقا فى دعوته للحرية والكرامة القومية ، حفيظا على اللغة والاصالة والتاريخ ، وان تجاذبت فريقا من جناحيه تيارات متضاربة ، فقد آن للوطن وهو يتهيأ للحياة الاستقلالية البانية ، أن يستحدث سياسة جديدة تتغير فيها العقول والطوايا وتتحرر الافكار والنفوس من كل ريبة أو خشية فى مواجهة الحقيقة اللبنانية التى ضمت جناحى لبنان على الود والعهد والوطنية الصادقة ، فيعود الشعب سيرته الأولى فى الطموح والابداع وتوطيد استقلاله بالتعاون الوثيق على البر بأهله جميعا والاخلاص للقضايا العربية فى معارك الحرية والمصير .

فليس عجيبا اذن ان يمثل عمر فاخورى عصره ووطنه فى

التحرر القومى والفكرى وأن يعبر عن جماهيره فى مقالاته وآثاره وفى حياته وكفاحه ، ولقد كان عمر مطابقا لهذا العصر ـ ان صح تعبير التطابق ، تمثل فيه الفكر العربى الحديث الذى أفاد من ثقافة الشرق والغرب والوعى السياسى الواسع فى شئون البلاد العربية والأجنبية ، فقد لابس المسألة الشرقية منذ ظهرت بوادرها وكان واقفا على خفايا الاستعمار ومطامعه فى أرجاء العرب ، ولكى نضع عمر ضمن عصره وفى محتواه نجد هذا العصر الذى امتد فى عمره نصف قرن قد أوتى حياة متعددة الوجوه والمراحل والاطوار فالوطنية والقومية سبقت الحياة السياسية فى الامصار الغربية والعربية وبرزت ملامح الثورة والانتفاضات الفكرية والتحررية فى وعى الشعب وتطوره فى التربية والمجتمع وفى المعيشة والسلوك .

وقد تجلت المنازع القومية والاستقلالية فى كفاح عمر منذ صباه ، ولو حللنا العوامل التى حفزته للانطلاق حتى جعلت منه ممثلا لعصره وقومه ، لوجدناها صادرة عن تفوقه وسبقه قبل الأوان الى ما أخذ به لرواد العرب من المجاهدين والنوابغ فى الحياة الوطنية والاجتماعية .

وكان لأعلام الفكر الغربى المعاصر أثر عميق فى تجاربه ومواهبه فقد عاش عمر طويلا فى أدب برنارد شو وأناتول فرانس ورومان رولان وولز وأندريه جيد وغيرهم ، وقد اتسعت عنايته بآراء الغربيين فى مسائل الشرق فتتبعها وعرف مداخلها ومخارجها وألم علما باقتباس المستشرقين من روائع الفكر الاسلامى والنظريات الاجتماعية والفنون الابداعية ، اذ أراد المستشرقون أن ينسبوها الى علمائهم فيما وجدوا من تراثنا كالكوميديا الالهية وفكرة الجبر الاجتماعى عند ابن خلدون وسواها كثير .

ولما أعجب عمر بالحركة الوطنية التى عبر عنها الزعيم الهندى غاندى فى حينها ، كتب عمر مقالات فى هذا الموضوع ، ونقل كتاب رومان رولان الى العربية فى سيرة غاندى الانسان الذى اتحد بالموجود الاعظم .

على أن عمر فاخورى فى حركاته التحرريه كلها لم يكن فى زمانه وراء مدرسه أو مذهب أو اتجاه محدد ، بل كان دوما وراء نظراته الثاقبة ونقداته النافذة فى شئون الحياة وتطور العصر مهتما بيومه الذى يبنى لغده مطبقا رأيه على ثقافته وحياته وقد عاش منغمسا فى حضارة عصره ، فلم يحرم نفسه من مباهجها وآفاقها ، وان فى كتبه القليلة العدد الكثيرة الافكار والآراء وما فى مضمونها من قيمة وقوة الدليل الواضح على مسايرته للعصر واتصاله بأهم مشكلاته وقضاياه ، وكانت متعددة معقدة ، شرقية وغربية ، اقليمية وعالمية وفى مظاهر العصر مجموعة الاضداد والنقائض فمن علم اتسعت أبعاده وتعمقت أغواره وانطلق فى الفضاء اختراعه واعجازه ، الى جهل مطبق على الاعين والبصائر وأمية فى الحرف والفكر والحياة، ومن أوهام غيبية والحاد واباحية زرت ظلمة الروح والقلق الى تعاليم سماوية ونسانية ملأت القلوب والنفوس ايمانا ونورا .

كل هذه الامور التى ضج بها العصر وشقيت من جرائها البشرية وقف عليها عمر فاخورى وجال فكره فى ظواهرها وعدواها ، فكان يلم قلبه بالحديث عنها فى نقداته ومقالاته دون أن يعقد لها تحليلا أو فصولا أو يختص بعضا منها بدراسة أو رواية لكنه يتناول بالالماع الدقيق أو الحجة الدامغة ما يغنى عن التفصيل فى عبارة لاذعة وسخرية مرة يحس القارىء فيها روح العصر وصور الحضارة والثقافة وازدحام المذاهب التى تبحث عن الحقيقة وهى نصب الاعين ، غير أن الحيرة فى ترف الذهن والفن وطغيان الباطل جعلت العقول هائمة فى التفسير والتعليل .

واما شخصية عمر فاخوری فی وطنه فقد انعكست عليها أطيب ما فی سجايا بيروت وطبيعة لبنان من انسانية ومروءة رفت على جوانحها المحبة والسماحة ، وكان لنشأة عمر الواعية ومدرسته الاولى وصحبة اترابه فيها اثر في تطلعه الى المعانی الجديدة القديمة فی حرية الأمه العربية وكرامتها في لغتها ومقومات حياتها ، وفی تعلقه بالأرض التی انبتته واعدته لما يحمل فی قلبه وبصيرته من حوافز الاخلاص لها في مواهبه وكفاحه ، لا يبتغي هجرة منها فی طموحه ، ولا نزوحا عنها في همه وكربه ، مهما ضاقت على وعيه وآماله ، وكان نوابغ الفكر والفن فی بلاده يفضلون الانطلاق والرزق فی الاغتراب كلما آسفهم الاهمال أو الاستبداد، لكن عمر فاخوری الذی اغترب للدراسة والثقافة عاد الى بيروت عام ١٩٢٤ وهو أشد ما يكون تعلقا بمن فيها وما طوت عليه أصالتها من جذور راسخة فی حضارة الفكر والكلمة وصداقة الفن والقيم الرفيعة وكانت من نفحات لبنان ومغارسه الخالدة ٠

وكانت بيروت موطن عمر فی عصره والجبل الملهم خلفها يمدها بالشعر والبطولة والابداع ـ يطبعان فی نفس عمر فاخوری جمالا منضوجا بزرقة البحر والسماء رفافا ببياض الشطوط والقمم ، وخضرة الأرض والمروج ، ففضل عمر هذا الفتون والاشعاع فی طبيعة بلاده وعناصر حياتها على كل افق ومدار ولو كان فيه لأمثاله المجد والثراء٠

وقد تعاقبت على حياة عمر آثار الوطن فی نواحيها العلمية والعملية فنهل من معاهدها وتراثها وينابيع قوميتها ما وسع آفاق تفكيره وأدبه ، وجعله يؤثر ثقافة الذين احتلوا وطنه فانطلق الى العاصمة التی لم تعصمهم من التنافس فی مصايد الاستعمار ، والتحالف على اقتسام البلاد العربية الموعودة بحريتها فی الحرب العالمية الاولى ٠

ولم يستطع عمر فاخوری الظآن للحرية والمعرفة الا أن يحب

باريس فى طوابعها ومباهجها ، فى متاحفها وحدائقها ، وقد ملأ فكره وبصره من توهج لياليها بنيران تنوبها وفتح قلبه على ثقافه فيها عميقه حنت على مزاجه وذوقه ، صادقه فى أساتذتها وآثارها فعب من فيض عقولهم وسحر بيانهم وفنونهم وما ارتوى فارتد اليهم مرتين حتى حمل الاجازة فى الحقوق وعاد الى بيروت بأمل جديد وعقل جديد فلم يجد فيها ما يحقق لنفسه ورسالته ما أراد ، ولم يكن فى الوظيفة مجال الانطلاق تفكيره وقلمه ، فما ضاق ببيروت ولا ضاقت هى به ، وقد رسخت محبته فى صميمها وعرفت مواقفه وبوادره من أجلها، وهى التى عمقت احساسه بالجماهير فى القريب والبعيد ومنحته الثقة بها وبذاته ، لكنه كان يعلم ان فيها من تجهموا لأدبه الرفيع وتجاربه الفنية والوطنية ، فلم يجدوا له مكانا ولهم ضمانا الا فى دائرة للعقارات ، تحت دار الكتب الوطنية .

وما كانت الخيبات والنكبات فى حبه وحياته، لتجعل من ضغطها وبغتاتها انفجارا فى عمر يعبث بأعماقه ويزين له الفرار وهجر الديار ، بل ازداد التصاقا بالتراب الذى أحتوى شريكة عمره وفتاة أحلامه فى ريعان صباها وهواها، فكان عمر فاخورى يمر بذلك التراب الواله لولهه فى ذهابه وايابه فيشعر أنه مع الذكرى التى لا تبلى .

ومن دأب المفكرين والأدباء اذا تململوا من الحياة أو تأبت عليهم آمالهم أن يملئوا أوراقهم وقصائدهم بالشكوى ، لكن عمر الذى أصيب بأشتات المحن والخطوب كان صبورا فى الرزايا مستخفا بها فيهونها على نفسه أو يلتزم الصمت والعزلة فى بلواه .

لم يكن يتظلم أو يتبرم بقلمه أو بلسانه الا فلتات كانت تلوح بين سطوره ونكاته ، حتى شغلته بيروت عن نفسه ومواجده الخاصة اذ كانت كل شىء فى وجوده وكفاحه ، ولو صدق مذهب الحلول لانطبق على عمر فاخورى بينه وبين موطنه ، فمن أجله وبسبيل

الوطن العربي الاكبر كانت بواكير حماسته وقلمه ، وان بئر «الشيخ رسلان » في الحي القديم هو الذي تلقى ماوه وقعره صـــندوق الكتاب الأول ، وكيف ينهض العرب ، وهو الذي يذكره دوما بالرسالة التي حملها مبكرا ثائرا .

وما كانت وطنية عمر هتافا أو ملقا أو ارتجالا ، وانما كانت أدبا حيا قويا وسعيا صادقا الى كلما يرفع شأن بلاده اللبنانية وينافح عنها خصومها في الضيم والاستغلال .

ولئن التصق عمر بوطنه وتعلق بنهضته وتحريره من شوائب الاحتلال ورواسبه في النفوس ، فانه لم يكن ضيق الآفاق والنظرات وقد تفتح قلبه على الفكرة العربية التي كانت من منابت لبنان ومن هدف رسالته القديمة ، فأراد عمر فاخوري أن تعود هذه الرسالة سيرتها الأولى في الفكر والتراث والتعاون الاخوي بين بلاده وأرجاء العرب الذين وحدت اللغة والثقافة والحقيقة بين جهادهم للحريـــة والسيادة القومية منذ أعقاب العصر الماضي « فليس يخطر لأحد ببال هنا وهناك أن ينكر الصلات الوثيقة التي تربط لبنان وسائر الاقطار العربية ، صلات مادية وروحية ، صلات في الماضي والحاضر ، وليس يخطر لأحد ببال هنا أو هنالك الا يحبذ كل مسعى يهدف الى توثيق هذه الصلات ودعمها في المستقبل .

« وقد تتعدد آراء اللبنانيين في بعض المسائل كنوع العلاقات بين بلادهم وبين الاقطار الشقيقة أو غيرهما لكن ثمة أمرا يجمع عليه كل الوطنيين هو المحافظة على كيان لبنـــان واســـتكمال عناصر استقلاله » (١)

وقد نشر عمر فاخوري كتابه الاخير « الحقيقة اللبنانية خواطر

---

(١) الحقيقة اللبنانية ص ١٧ و ١٨ لعمر فاخوري .

وأحاديث متغنيا برسالة لبنان فى ثقافة تمازج وتجاوب وأخذ وعطاء .

« لا يمكن أن يكون لبنان وطنا دينيا أو مذهبيا ، لا يصح أن يكون الا وطنا لجميع أهله على السواء » .

« فلبنان منذ كان لم يقف على ساحل هذا الأبيض المتوسط ازاء مدنياته القديمة والحديثة كما يقف الصياد الذى دهمته العتمة ولم يعطه البحر سمكة واحدة .. »

« ما كان صغر رقعته ليقفه أو يكفه عن أن يعطى العالم أداة التخاطب المثلى وأساليب العبادة الفضلى وطرائق للفكر والعمل قوية » .

بمثل هذه الخواطر اللبنانية كان عمر فاخورى يعبر عن وطنيته وتعلقه بأرض بلاده ـ وسيادتها وعن وفائه لرسالتها وارتباطها الروحى والفكرى بقضايا العرب وهمومهم ، فما من قوة تستطيع أن تسلخها عن وشائج الدم والقربى والتاريخ ، فكانت كلماته المأثورة والمنشورة فى كتبه أو المطوية بين صفحات المجلات تشف عن اهتمامه الدائم بوطنه لبنان وما يريد له من الخير العام . فمنذ غاص فى حياة الجماهير أديبا ناقدا ، ووطنيا مكافحا كان ينظر الى المجتمع قبل الاستقلال فيراه فى تعدد طوائفه كأن فيه الحدود التى تفصل وطنا عن وطن . فقال ذات يوم : « ان فى لبنان بين المذهب والمذهب وبين الجنس والجنس من الحدود والحواجز ما يحتاج معه الى حوازات سفر كأننا شعوب فى شعب وأوطان في وطن ، ولما استقل لبنان وجمع الميثاق الوطنى (١) أهله فى وحدة وطنية ملأت الفرحة صدر عمر اذ

---

(١) من ذكريات الميثاق للزعيم السروتى الذى شارك فيه «صائب سلام» وعنده الخبر اليقين والوثائق التاريخية الحية فى قضايا التحرر والاستقلال .

رأى « لبنان الذى كان متخبطا فى حيرته باحثا عن ذاته ، تارة مشرقا وتارة مغربا ، يجد نفسه حيث يجب أن يجدها » فدعا لتعهد اللقاء الجديد القائم على الحقيقة والحرية بالصون والرعاية وأن يفديه أهله بالقلوب والأفئدة .

واطمأن قلب عمر فاخورى بالروح التى سادت لبنان بسيادته القومية ووحدته الوطنية ، فان تجاوب الشعب المستقل قد أخذ على نفسه العهد والميثاق عام ١٩٤٣ بأن يعمل على تحرير النفوس من كل ما رسب فيها منذ الحكم العثمانى حتى نهاية الانتداب الفرنسى، وما أروع الموثق الشعبى الذى لم يكن مكتوبا بالحبر والورق ، وانما جاء عهدا فى الضمير والشعور نابعا من ايمان اللبنانيين بحقيقة الوطن ورسالته .

وفى عام ١٩٤٥ أكد بناة العهد الجديد فى لبنان عند انشاء الجامعة العربية « ان بلادهم جزء لا يتجزأ من الوطن العربى الكبير وهو عضو فى الأسرة العربية متعاون فى كل ما يئول الى خيرها أو يدفع الشر عنها » فامتلأ قلب عمر نورا جديدا من اشعاع الوطن الذى تألقت مصابيحه ومواهبه وكان عمر بينها يحمل وعد الجماهير فى المبادىء الفكرية والانسانية التى « تجعل للحياة قيمة بل التى لا قيمة للحياة بدونها » فأقدم عام ١٩٤٣ على خوض المعركة الانتخابية للنيابة مستقلا منفصلا عن كل قائمة حزبية أو لائحة تكتلية ففاز بأصوات الصادقين المؤمنين بأن عمر سيكون ممثلا لهم واقفا بالمرصاد لكل واقف بطريق الشعب ، لكن هذه الأصوات على كثرتها لم تضمن له الانتصار بالمعركة ، فكان عمر فاخورى مثل قائد خسر المعركة وهو يفديها بشهامته وشخصيته فاشبه من ركب البحر دون بخار أو بوصلة ، اذ اندفع الى الساحة بسلاح القلم والوطنية وايمان جماهيره الصاعدة ، شاعرا بالتبعات التى تلقى على

أمثاله فى أرقى الأمم وأقواهـا ، لكن المنازل المرصـودة لذوبهـا بالوسـائل التقليدية أغلقت فى وجه عمر ، ولو طال عمره عشرين سنة لوجد الرياح الموسمية ما زالت تطيح بأمثاله ، فتعزى بصديقه الشاعر سعيد عقل الذى أحب أن يمارس تجربة عمر ، لكن ضفاف البردونى التى كانت من ملهماته قد تجهمت له فى السياسة فخاب مسعاه ، على أن عمر فاخورى الأديب الوطنى الذى أراد أن يكون سياسيا قد استطاع أن يكون ، ولكن من طراز جديد ، وفى عهد جديد ، شق من بعده لأنداده الطريق ، لعل التغيير فى النفوس يحرر الناس من سحر الجيوب التى بمقدورها أن تغير كل شىء حتى مجرى الأنهار •

وعاد عمر الى الساحة عام ١٩٤٤ أديبا واقعيا يصور بقلمه حياة الجماهير التى بادلته وفاء بوفاء وكانت هـذه الحياة من الينابيـع الفياضة لكل فن وقلم وكفاح ، فنشر عمر حصيلته من نتاجه بعـد المعركة « أديب فى السوق » •

وازداد فى تلك الفترة القصيرة المحصول الادبى لعمر فاخورى الذى استمد عناصره من الحقيقة والواقع بعد استقلال بلاده ، فأذاع أحاديثه وخواطره تحت عنوان « الحقيقة اللبنانية » مصورا فيهـا اعتزاز الجماهير باستقلالها وعودة الوطن الى رسالته فى الحرية والقومية وقد أشاد فى العام نفسه ١٩٤٤ بالصداقة الرائعة التى ربطت بين الشعوب المكافحة السائرة نحو التحرر وبين البطولة السوفياتية فى سحقها معاقل النازية •

على أن المرض أخذ يتسلل الى جسم عمر دون رحمة أو هوادة وهو لا يعبأ بمجهود أو عسير • فما كانت الوطنية رداء يلبس حينا ثم يفضى عن صاحبه طوعا أو كرها بعد حين ، وانما كانت فى عمر عقيدة راسخة نبعت من القلب والقلم ، وجلدا قد التصق باللحم

والدم ، فعاد عمر على بدء ليعاود سيرته الأولى وهو يتشبث بأن يعيش ...

واذا كانت ساحة النوابغ فى كل أمة مرتعا لزحام الحياة والموت فان الحياة التى حرمت عمر فاخورى سعادته وضنت عليه بما أراد وهو قعيد وظيفته تحت « دار الكتب » كان الموت أكرم منها ، اذ أتاح لعمر أن ترف روحه على صورته التى علقها التكريم (١) بعد غروبه بأربع سنوات فى جدار الدار التى تاقت نفسه اليها فى شروق الحياة

(١) عام ١٩٥٠ .

مكانة عمر

في الأدب والمجتمع

أدب عمر فاخوري وكفاحه المبكر للتحرر الفكري والوطني أحله مكانة مرموقة في وطنه بيروت وفي العالم العربي الذي عرف نبوغه ورسالته ، وكانت آثاره تملأ القلوب اعجابا بفنه وبيانه وتفتح الأعين على تطور في الأداء وأدب تحرر من التكلف والتقليد واستمد المعاني والصور من ينابيع الحياة وقد امتزجت فيه الثقافة العربية بالغربية واتسم أسلوبه بالابداع الفني وشف عن شخصيته بمقوماتها وخصائصها .

ولقد ترامى صيت عمر في أدبه ومواهبه ومشاركته في الكفاح للديمقراطية والسيادة القومية منذ هبت رياح النقمة على السيطرة العثمانية ، وكان عمر في ريعان العمر يندفع في شعوره وتفكيره مع أنداده ولداته فاتسعت شهرته وهو لم يبرح وطنه بيروت بعد أن عاش مدة في دمشق وحلب وباريس وزار القاهرة وكان الاغتراب من لبنان في بوادر الثورة العربية للرزق والحرية من أسباب الانطلاق، لكن عمر فاخوري الذي التصق بأرضه وذويه وعقد عليهما أمله الكبير لم يستطع الانفكاك عن منبته ولو الى حين وقد عاد من رحلته الثانية للدراسة الحقوقية في باريس وهو أشد ما يكون تعلقا بالوطن والفكرة التي حملها منذ صباه ، راجيا أن يلقى في بيروت مدينة الثقافة والجامعات ومنارة الاشعاع والالهام عملا يحقق فيه عمر ذاته ورسالته ، لكن الأبواب أغلقت في وجه الحقيقة التي تتأبى على الملق والمداورة ، وكان عمر يسعى وراء هذه الحقيقة في أدبه

وحياته ، فلم يعجب للسدود والقيود التى أقامها الرياء والخنوع للأحرار . وقد رأى أن بلوغ المناصب يكون أحيانا بالتسلق والتزيف أكثر مما يكون بالجدارة الفكرية والكفاح ، فاضطر عمر الى التمرس بالصحافة حينا وبالمحاماة حينا ، على أن تمرسه بها كان كتمرس أبى الطيب بالآفات ، لا المحاماة تنقاد له صاغرة ولا هو يبش لها متزلفا ، « فكان يدعو الله سرا وعلانية أن يصرفها عنه بالتى هى أحسن (١) » وقد تحدث الشاعر صلاح اللبابيدى عن ضيق عمر بالمحاماة (٢) التى لم تلائم طبعه ومن جرائها أعرض عن وظيفة فى القضاء ، فمضى عام ١٩٢٩ الى دائرة تكدست فيها الدفاتر العتيقة وجلس عندها ينظر فى صفحاتها ومحتوياتها فيعجب لنصيبه فى هذه الدائرة ، وكانت الوظائف التى خلق لها مغلقة الأبواب فى وجهه ، وقد تبحبح فيها من كانوا دونه علما وعزما ، وما حيلة المضطر الا القيام بما عهد اليه فى تلك الدائرة تفتح دفاترها لذوى العقارات والأملاك بالتحديد والأقارم ، وما انقادت له يوما أو انقاد لها غير انها فى الوظيفة لا مناص منها فهى تتبع العقار والسجلات وتلحق بالحدود والصكوك .

وكان عمر فاخورى يدور فى دائرته على نفسه بالتساؤل لولا الوجه الملائكى الحنون فى زوجه العتيدة التى كانت أيامها معه أحلاما وأنغاما وكان عام ١٩٣٠ مشرقا سعيدا بأمل الأسرة والولد ، لكن الموت تخطف ذلك الوجه الذى رأى فيه عمر سعادة عمره وألهاه عما لقى من حيف وحرمان ، فحبس نفسه فى منزله أياما طويلة ثقيلة كابد فيها اللوعة والفجيعة ، فقد مات أمله الأكبر واسودت الحياة فى نظره وتفكيره فانطوى على ذاته وكآبته ، ولولا الوظيفة

---

(١) الحقيقة اللبنانية ص ٨٤ .

(٢) الثمالات لصلاح اللبابيدى .

لقطع ما بينه وبين الناس وكانوا يحبونه ويجلونه ، فهالتهم الصدمة التي تلقاها أديبهم بالحزن الصامت ، وحملوا معه الحسرة والألم ، وقد دامت هذه العزلة التي سجن فيها نفسه بضعة أعوام كان صديقه فيها ورفيقه الشاعر المتنبي الذى أحبه عمر ، ووجد لديه شعوره بالتأسي والمصابرة ، فان أبا الطيب لقى أشباها مما لقى عمر في مضيعة الحب والحياة .

وما كان ترادف السنين والحوادث ليستطيع أن يرمم قلبا هدته المصيبة وآسفته الخيبة في حياته الجديدة ، والانسان الذى أوتى رهافة الاحساس يقيم فى قلبه لأحبابه منازل ثم تأتى الخطوب والهموم فتزيلها من الوجود وتهب عليها عواصف نفسية من يمين وشمال حتى تزيل رسومها ومعالمها ، ونحن بنى الانسان نحمل بين جوانحنا أطلالا عافيات ، وكذلك حمل عمر فاخورى أطلاله بين جنبيه ، وعاش بينه وبين نفسه ينادمها ويناديها وما أحسسنا بحسيسها الا قليلا بين سطور كتبها دون بوح أو تصريح ، وكان ينبغى لعمر كأديب كبير أن يفضى بأسرار قلبه الى كتبه ودفاتره كما فعل في ذكرياته عن الصداقة فى أيام الدراسة وقد أودعها دفاتره الأولى لكن ذكريات عمر في صدماته بقيت مطوية فى دفتر نفسه وقد حملها معه الى التراب ، ولما طال به أساه وجد متنفسا لكربه بانفلات من محبسه الى الملاهى الليلية لعل فيها ما يخفف عنه الغموم حتى التقى عام ١٩٣٧ بغانية أجنبية استطاعت أن تعيد اليه نفسه الشاردة وتستدرجه الى الحياة الأدبية التى هجرها ، فعاد الى قلمه وأوراقه وانطلق بقلمه البليغ وحسه الرهيف الى ينابيع الحياة يستقى منها لفنه وثقافته ويعتق من نطاق نفسه ومراسه الى نفوس الجماهير متأملا متسائلا واضعا لمشكلاتها وأطوارها حلولا وتفسيرا في ايجاز رائع يومىء ، اليها أكثر مما يضع الأصابع عليها .

وكانت الصحافة المجددة فى لبنان بعد الثلاثين من هذا العصر

تعنى بالحياة الأدبية الحديثة وتدعو للنقد الأدبى والفن القصصى الذى ظهرت بشائره وآثاره فى أقلام بعض الموهوبين على ضفاف النيل وشطوط بيروت وقد جمع هؤلاء أقاصيصهم فى كتب مطبوعة ثم غدوا بعد حين من أعلام القصة كمحمود تيمور ويحيى حقى فى مصر وكرم ملحم كرم وخليل تقى الدين وتوفيق يوسف عواد فى لبنان ، وكان الشيخ (١) فؤاد حبيشى صاحب « المكشوف » من رواد التطور والتحرر فى الأدب والصحافة فدعا عمر فاخورى وصحبه من الكتاب والشعراء كالريحانى أمين وعمر فروخ ونجيب العقيقى ليشاركوا فى بناء الأدب الحديث وهدم طواحين الألفاظ وجعجعة الادعاء ، فاستجاب عمر وأمده بمقالات نقدية وفكرية فيها ثورة وقدوة ، وفى عام ١٩٣٨ نشرت « المكشوف » وأول كتاب أدبى لعمر فاخورى اختار هو مقالاته التى نشر أكثرها فى أيام سعادته ، ومنها « كنوز الفقراء » التى صنعها عام ١٩٢٦ من أجل خطيبته « سلوى طباره » وقد سمى عمر كتابه هذا « الباب المرصود » فأثار ضجة فى الحياة الفكرية والنقدية بلبنان والعالم العربى وكأن هذا الباب العمرى الذى كان مغلقا قد انفك عنه الرصد وانطلق من خلفه المارد الذى ضاق بالحبس والوحدة فرد الناس الى أديبهم الذى تفقدوه طويلا حتى وجدوه وما زادوه الا حبا وايمانا بما كانوا يرتقبون من ابداعه واطلاعه فقد زهدوا فى بضاعة الاجترار والزخرف والتمويه فكان فى « الباب المرصود » مفتاح العودة للأدب الحى فى صناعة فنية بلمحات الشعر ونظرات النقد والتمحيص التى تزاحمت فى كتاب عمر ، ولم يتخل هو عن هذه الصياغة حتى فى مقالاته السياسية .

وبين عام وآخر كانت تظهر آثار عمر مطبوعة فى كتب خفيفة

(١) من الالقاب اللبنانية لذوى الاسر الكبيرة في الجبل وليس للمشيخة الدينية .

الحجم رخيصة الورق وقد ضمت مقالاته وخطبه وأحاديثه وحملت العناوين الظريفة التى دلت على محتويات الكتب ومثلت مرحلة من مراحل التطور والتحول فى حياة عمر وأدبه، منها «الفصول الأربعه» و« لا هواده » و « أديب في السوق » و « الحقيقة اللبنانية » وكان آخرها قبل وفاته ، ولم تكن قيمة آثاره بحجومها وعددها بل بما احتوت من آراء تحررية وسطور تشع بالفكر المتوقد المتجدد ، الذى يضيء ولا يحرق ، ويعبر عن شوق الشخصية العربية الى الحياة الحرة اللائقة ، فان ظروف السياسة ونفوذ الاستعمار كانا يعاديان الحرية ، فكان عمر يمارسها ويحميها من الدواهى بأسلوبه المطبوع ولباقته المعهودة ، وكأن رسالته التى حملها فى شبابه قد ألحت عليه بأن يتحول فى أدبه الى الشعب الذى كانت حاجته اليه تفوق حاجة الفن الى ابداع عمر ، فان أدبه الرفيع كان تصويرا لحياة الشعب والوطن على طريقته وتعبيرا فى نقده وتهكمه عن الهموم التى تموج فى هذه الحياة وقد رأى عمر أن الحرية التى كافح فى سبيلها هى مسألة الشعب ومسألة العالم ، لها أصدقاؤها وأعداؤها فى بلاده وبلاد غيره فانصبت لعنته على من يعاديها فى ذلك الحين وكانت تتمثل فى النازية والرجعية اللتين تهددان الفكر والمجتمع كما انصب حبه على من كافح هاتين الآفتين . وحمل على الأدباء والمثقفين الانعزاليين الذين فصلوا نفوسهم عن السياسة كأنها منفصلة عن أدب الحياة ، فاعتزلوا الناس ، ورضى التخوف من مصابيحهم بهذا الانفصال ، فثار عمر فى جسمه النحيل وتفكيره العميق متحولا فى أدبه من التحليل والتأويل الى التحرير والتغيير قائلا لمن رددوا من المتخاذلين « هى القوة لا قبل لنا بها هو القضاء فمن يدفعه ؟ والعين لا تقاوم بالمخرز » ان التاريخ قد عرف حوارا دار بين تلك العين وذلك المخرز .. ودائما كان ينبت للعين ظفر وناب .

بلغ عمر فاخورى هذا المدى فى تطور أدبه وكفاحه وشغل وقته

فى الوظيفة وفى التبعات الفكرية الجديدة ولم تصده متاعبه عن الاستجابة لخطبة يلقيها فى ندوة أو حديث يشارك فيه صحبه ، وهو فى مشاغله أو فراغ وقته لم يكن فى نفسه مشغولا عن الأدب ، عن العمل الفنى التام الذى يضيف لبنة الى بناء الفكر ، اما النقد فيصقل ويهذب فى حجارة البناء القائمة (١) .

ومن الذى ترضى سجاياه كلها ، وبخاصة اذا كان أديبا مرموقا ، فان الأعين تتبع آثاره وخطاه اذا هفا أو كبا ؟

وكان عمر فى حياته الأدبية كما كان فى حياته الاجتماعية عف اللسان والقلم يكره الثرثرة والحذلقة وتخفى ابتسامته الدائمة ما يخفق فى صدره من قلق وألم ، وشعور لا يفارقه بالعزة والشمم لكنه على شعوره هذا كان لا يزهو بما صنع ولا يمن على أحد ولم يستطع حسود أن ينال من مكانته الأدبية والاجتماعية فى حياته وبعد وفاته لأنه بلغها بحق والاخلاص ولئن لجم الموت قلم عمر وعقل لسانه فانه ما لجم عقيدته ولا عقل حماسته ، فالاثنان تجريان فى دماء الكثير وعروقهم من أبناء اللغة التى أحبها عمر وأحبته والتى اعتزت بقلم أنيق وصادق ودقيق كقلمه (٢) ولم يكن خصب الانتاج والتأليف لأنه لم يتفرغ للأدب ولم يحترفه للكسب وقد دهمته الخيبات والنكبات فصرفته مدة عن معاناة التعبير الفنى الذى أتقنه وقدمه فى انتاجه ، وكان عمر يعانى فى توليد أفكاره وخواطره عسرا ، حتى اذا أبدعها جاءت سليمة قويمة ، ولهذا كان مقلا لا يعجبه المقال اذا شردت فيه كلمة أو ضاعت فكرة أو جاء على مثال غيره، فان قوة التعبير والتفكير فى أدب عمر قد استمدها من سليقته وشخصيته التى ما كان يشاركه فيها أحد ، وهذه الشخصية ظاهرة

---

(١) فى مجلة الطريق عام ١٩٤٦ .

(٢) ميخائيل نعيمة .

فى الأسلوب والموضوع لكنها فى الأسلوب تجلت فى الطابع الذى نبغ فيه عمر وجعل منه كما قال صديقه الشيخ خليل تقى الدين « شيخ الأدباء فى هذا البلد بلا منازع ، وأحد أفرادهم المعدودين فى العربية » .

« ولو أوتى عمر من الجلد ما وهب من قوة الابتكار ، لكان للعربية منه أدب لا يدانيه أحد ، وقد طبع على الابداع ، وهو من أبعد الناس عن السير على الخطا التى مشاها الناس ، وانه ليشعرك حتى فى الموضوعات التى تناولها غيره من الكتاب بقوة الابتكار التى اشتملت عليها روحه .. » (١)

ومن نكد الدنيا أن يتصوح زهر عمر فى هجمة ربيع له جديد وهو فى ابان تألقه بالمجد والصداقة والفكر ، وصيحات الحرية والسيادة القومية بعد الاستقلال تناديه وتدعو أنداده للجهاد الأكبر فامتلأت نفسه أملا جديدا قويا وعللها بغد كبير ، لكن داء الكبد أخذ يستل قوته ورزقه وهو يتشبث بالحياة ويلتمس العافية بالعلاج حتى اضطر الى بيع أغلى ما اقتنى فى حياته وهو مكتبته الحافلة بأروع مطبوعات الشرق والغرب مجلدة فى نسق واحد ليشترى بثمنها الدواء وما أجدى الفداء فان الموضوع هد قواه وطواه » فوجم القوم لهذا المصير ، لكن حادث الموت فى نظر العقل والفلسفة أمر مكتوب لابد منه للانسان مهما يعش ويعمر سعيدا أو شقيا .

ومشت بيروت فى جنازة عمر فاخورى باكية فتاها الذى طلب الحياة وهو أشد ما يكون تعلقا بها لاكمال خطاه فقد رأى بعينيه وأحس بقلبه وأعصابه مدى حب الشعب وتجاوبه معه لكن أجله الذى جاء فى ربيع عام ١٩٤٦ مشى به الى مرقده الأخير حيث تلاقت روحه بمن فقدها فى عز شبابه والتمس الفرار من نفسه وحزنه

---

(١) المكشوف .

الى الشعب يكتب من أجله ويخطب حتى تخطفه الموت ورقد تحت السنديانه في مقبرة الباشورة كما رقد صاحبه عمر الخيام بنيسابور تحت سنديانة مشابهة ٠

واتفق أن الدكتور طه حسين كان غداة الدفن في بيروت عائدا من رحلة الصيف الى القاهرة فقال : « كادت هذه الزيارة تكون صفوا كلها لولا انى سألت عن صديق لبنانى أديب كانت له في نفسي كما كانت له في نفوس الأدباء الشرقيين جميعا مكانة ممتازة فقيل لى لقد دفناه بالأمس ، هنالك أخذ الندى كله وجوم طويل لم نقل فى أثنائه شيئا ، وانما قالت قلوبنا فى أثنائه كل شيء ، وما عسى كنا نستطيع أن نقول وقضاء الله أقوى وأمضى وأصرم من أن نملك أمامه شيئا غير السكوت والاذعان ، وهذا الحزن الذى يغني القلوب ويضاعف ثروة العقول ٠

لم أقل شيئا ولم يقل أصحابي شيئا ، وانما اتخذت لهذا الأديب اللبنانى العظيم قبرا فى ناحية من نواحى قلبى ، كما اتخذ اللبنانيون له قبورا فى قلوبهم ، وكما احتفروا له قبرا فى مكان ما من أرض لبنان (١) ٠

ولم يتخذ اللبنانيون وحدهم مدافن لعمر فاخورى في قلوبهم بل شارك العالم العربى فى هذا الحزن العميق وتنادى أعلامه وكبراؤه للتنويه بفضل الفقيد وذكراه على اختلاف منازعهم الفكرية والسياسية ، فأشادوا شعرا ونثرا بعمر فاخورى وأدبه الحر الصادق والوطنية المخلصة وجهاده الطويل الذى أعطى كثيرا ولم يأخذ الا محبة الشعب وثقته وكان له فيهما العزاء بقلة الوفاء ٠

فاذا كان نصيب الأديب الحر فى حياته الكفاح لتحقيق ذاته وفكرته فما أجدر أصدقاء عمر وتلاميذه بأن يكملوا بدايته ورسالته ، وأن

(١) الكاتب المصرى عام ١٩٤٦ ٠

يلقى من المسئولين وهو حى دائب كل تكريم وتقديم ، فلا يمنح الوسام والجائزة بعد الغياب ٠

وما كان الموت الا غيبة طويلة فكأن الأدب الخالد بآثاره ومآثره قد سافر الى بلد بعيد فتدوم ذكراه فى كتبه وأفكاره كأنه ما زال باقيا على ترادف الاجيال ، وعمر فاخورى الذى قطع واحدا وخمسين عاما فى قطار الحياة ثم نزل فى المحطة قبل نهاية الطريق ، تعيش ذكراه فى القلوب والمسامع التى عرفته وقرأته ، وكانت كتبه التى سبقت أوانها ونشرت بايامنا لا تزال دورة فى قمم لبنان ، فما أجدرها بطبعة واسعة جديدة بها بل ما أجدرها بالدراسة والتحليل حتى تعم آماد العربة والحرية وتنقل الى اللغات الأجنبية ، فليس من كتاب لعمر على ضآلة حجمه هو دون كتب الطليعة من أدباء العرب ، والجيل العربى الصاعد مدعو لقراءة هذا الرائد الذى عاش للفكر والابداع وكافح من أجل الشعب حتى مات مثل شهيد سقط فى المعركة ، وكان عمر من قافلة الشهداء الأحياء اذ نجا لصغر سنه من مشانق الاستبداد العثمانى فى بيروت ودمشق فبقى فى معترك الحرية والحياة مجاهدا حتى لقى السابقين ٠

***

في صحبة دائبة

أو صاحب عمر

لم يكن هذا الصاحب انسانا من لحم ودم وانما كان مانح هذا الانسان نور القلب وسعادة الفكر والشعور .

كان هذا من صاحب عمر حين يصفو ويسمو واذا تكدر وعبثت به الاهواء كان تلميذ ابليس ، انه الكتاب ..

على أن عمر فاخوري الذى تفتح وعيه على يد هذا الصاحب الأمين لم يستطع أن يفارقه فلزمه وكرمه ، وكان صاحبه وفيا له ما جفاه حيا ولا أدخل الضيم عليه ، وهذا التعبير كان يؤثره الجاحظ أبو عثمان ، وكان أبو عثمان شيخ الأدباء فى عصره صديقا صادقا لعمر على تباعد الزمان فطبعه بمحبة الكتاب منذ أملى عليه فى مقدمة كتابه « الحيوان » صفحات مشرقة شائقة فى وصف هذا الجليس الأنيس الذى كان يتخذ فى القديم من رقاق الجلود ، وفى عصور الحضارة تفننت المطبعة واليد الصناع فى اخراجه واغراء القارىء بحمله وشرائه واتخاذه معلما ومؤانسا .

ولكل صحبة أسباب وحوافز تبقيها وتحييها ، أو تقطعها وتنفيها ، وقد دلنا عمر فاخورى نفسه على بواعث هذه الصحبة ، فحدثنا كيف غرس فى نفسه حب الكتاب وصحبة أستاذه علامة بيروت مصطفى الغلاييني ، وحلل عمر هذا التعلق بالكتاب بطريقة علمية فكان لا يغريه الكتاب بشكله ولونه وزخرفه فى اللفظ والاداء اذا كان أجوف تافها ، وانما كان يدلف عمر بهذه المحبة والصحبة الى فحوى الكتاب وموضوعه ، غير غافل عن أسلوبه وطريقته فى

التعبير ، وكان أول الطوابع المرتسمة فى أعماقه كتاب الله الذى صدر عنه بلغاء العرب الى عصرنا ،وأى كاتب بليغ أو خطيب مفوه لم يرد هذه الموارد القرآنيه بقى متخلفا فى بيانه وأدائه ، وان استهوى الناس بتفكيره وابداعه .

لقد عكف عمر فاخورى على الكتاب العربى فى نثره وشعره وعلى اختلاف عصوره ، وجال بالفكر والمقارنة والتمحيص كل مجال فى التراث دون سآمة أو زهادة منذ صباه حتى فارق الدنيا ، ومن قوله فى الكتاب : « انى لا أعرف فى حياتنا من المباهج والملاذ كثمالة الكأس ما ليس يمازجه شىء من الخيبة أو الندم أو القلق خلا مباهج الكتاب وملاذه ، الكتاب الجيد الذى تقرؤه أكثر من مرة فكل مرة يزيدك لذة وابتهاجا .. (١) .

وبديهى أن يكون هذا الكتاب مختارا ومرجعا ومأثورا أو كالموسوعة التى يجد فيها الكاتب والقارىء أشتات المعرفة ، وكان عمر يحسن الاختيار فى كتبه ، يقرأ ما يروقه ويطيب له ، ويطلع على كل جديد منها لكى لا يفوته رأى أو اتجاه أو موضوع ، وفى قوة شبابه واكبابه على الكتاب كان غواصا فى ذخائر العربية وأدبها ، فقرأ روائعها وعاش فى بيانها وتراثها ، يتبين الحقائق ويتذوق الطيبات ويعرف ما اندس فى بعض المؤلفات من تحريف وتزييف حتى رأى نفسه فى عكوفه على الكتب العربية « مدينا لها بأرغد شطر من عمره وان ما أعطاه الكتاب العربى فى ثقافته وحياته هو أبعد غورا والصق بسويدائه وأكثر شمولا وأبقى على الأيام وأصفى جوهرا وأسمى من كل ما عداه » . (٢)

وما أروع حديث عمر عن هذا الكتاب الذى أحبه وصاحبه ولم

---

(١) ، (٢) ص ٨ من الحيقة اللبنانية لعمر فاخورى .

يكن يفترق فى ذهنه عن صورة لأستاذه الغلاييني (١) وهـو فتى فى أول عهده بالتدريس وعمر فى أول عهده بالدراسـة . وكان عمر ورفاقه يتعلمون العربية وقواعدها من أسـتاذهم الغلاييني وفى مؤلفاته قبل ان تظهر مطبوعة وكأنهم حضروا مولدهـا قبل أن يتداولها الألوف فى جميع الأقطار منذ ظهورها .

وكأن عمر يعد الكتب التى أحبها وأفاد منها أساتذة صامتين صاحبهم فى مؤلفاتهم وآثارهم وقيضـوا له الحوار والنقد بحرية وحجة فلم يصخبوا أو يضجروا ، لأنهم أحسوا فى عمر الاخـلاص للمعرفة والوفاء لمعلميه ومن تلقى منهم الأدب والتربية ، ولم يقف عمر عنـد الكتاب العربى قانعا بثقافته كاتبا وقارئا ، فقد أحب الثقافة الغربية منذ تعلم الفرنسية والانكليزية وساير تطور الفكر الأوروبى وبخاصة الفكر الفرنسى المعاصر ، فاقتنى مجموعات كاملة لأعلام الأدب القـديم والحـديث ، وكانت خـزائن كتبـه تزدهى بمؤلفات أناتول فرانس وأندريه جيـد وغيرهمـا من رواد الفكرة التحررية ، بل كان عمر فاخورى وهو فى صحبة الكتاب يسكن فى بيته بمدينة من الكتب مثل صاحبه أناتول فرانس .

وقد تجلت آثار الكتاب العربى فى أدب عمر وثقافته وشاقته النقلة حينا من الفرنسية الى العربية ، فنقل آراء أناتول فرانس ، وكتاب رومان رولان فى سيرة مهاتما غاندى وغيرها من القصـص والمقالات ، وفى كتابه « الفصول الأربعة » أنشأ حديثا طويلا (٢) حول شطر واحد من بيت واحد للمتنبى : « تناهى سكون الحسن فى حركاتها » وذلك فى تصويره لحسناء فدلنا عمر فاخورى فى تحليله هذا لسكون الحركة وسكون الحسن على تذوقه الفنى الرفيع

---

(١) من رواد الطليعة الفكرية فى نهضتنا المحدثة وكان شاعرا واديبا ومعلما وقاضيا .

(٢) القاه على المتخرجين من القسم الفرنسي فى الجامعة الامريكية عام ١٩٤٠

واستمتاعه بأصدق الشعر وأعمقه معنى ، وساق عمر فى مقارنة بارعة بين وصف الشاعر العربى الكبير وبين ما جاء فى بعض الآراء الفلسفية عند العرب والفرنجة وساقه مثالا عريقا على السكون والحركة عند قاضى البصرة عبد الله بن سوار الذى كان يأتى مجلسه للنظر فى قضايا الناس وقصصهم فيجلس محتبيا ولا يفك حبوته أو ينزل رجلا عن رجل حتى اذا الحت عليه ذبابة أخرجته من السكون الى الحركة ، ولما قارن عمر فى حديثه عن المتنبى بين قول الشاعر وما قال المعلم الحكيم آلان بكتابه « نظام الفنون الجميلة » فى القول والعمل وعلاقة الجمال بالحركة والسكون أمسك عمر بفكره وخاطره ميزان النقد والمقارنة بين الجاحظ والأديب الفرنسى آلان فرآهما على اختلاف الزمان والمكان والانسان والبيان ، ندين متفقين فى التصوير والتعبير .

وهذا مثال من التمازج الفكرى لدى عمر فاخورى بين الكتاب العربى والغربى ، رأيناه فى سطوره منسوبا لأصحابه ، لا كنفر من أدباء العرب الذين تلقوا ثقافة أوروبية أو أمريكية واذ بهم يعرفون اللحم والعظم من أبدان الكتب الأجنبية وينسبون ما أعجبهم منها لأنفسهم ليدخلوا الدسم على مؤلفاتهم الهزيلة ، وبقى عمر مصاحبا للكتب شرقية وغربية ناهلا من النبعين دون ارتواء ، ومنذا الذى يرتوى من ينابيع الكتب ، ومتى قال ناهل قد اكتفيت فقد بدأ جهله ..

كان المعلم الحكيم الفرنسى آلان الذى حدثنا عنه عمر فاخورى فى محاضرته عن السكون والحركة يقول : يبقى أبدا الأديب والعالم والفيلسوف وكل مثقف تلميذا حتى يموت ، وكان آندره موروا تلميذ آلان وطائفة كبيرة من أدباء العصر فى فرنسة تخرجوا على توجيه آلان الذى بدأ حياته مدرسا وأصبحت كتبه فى نضج تفكيره واتساع آفاقه مدرسة خالدة كمدرسة أفلاطون .

وكذلك بقى عمر يتعلم ويقرأ حتى نهاية أيامه فما كان يرى الا متأبطا كتابا أو عاكفا فى بيته على كتاب ولكم طال وقوفه ونظره فى رفوف المكتبات وعلى أرصفة الشوارع فى بيروت وباريس حيث استكمل ثقافته الحقوقية ، وكان رفاقه فى الغربة والدراسة يعاينون فيه التعلق بالكتاب ، اذ كان يؤثره على الطعام ، فينقب فى المكتبات عن طبعات شعبية ميسرة لأهم الكتب العالمية وربما بات على الطوى فى سبيل كتاب باهظ الثمن ، فاذا أمسك به ضمه الى صدره وأسرع فى خطاه كأنه مع حبيبته على موعد لقاء .

وروى صديقه الشاعر البيروتى صلاح لبابيدى انه قرأ مع عمر فاخورى فى باريس ديوان الحسن بن هانى فى حديقة عامة فكانا يمضيان أصفى الساعات فى قراءة النواسى ، وكان اعجاب عمر بشعره وهو فى تأملاته يفوق استمتاعه ببهجة الحديقة وفتون الحسان .

ولم يشغل عمر حب الكتاب عن حب الحياة وهى معلمة الاساتذة ومن لم يتلق من الحياة تجاريب العمر والفكر فما نفعه درس ولا تحصيل .

وهنا يعوزنا تعبير علمى ساد فى عصرنا وهو أن العلم النظرى وحده لا يفيد الا بالعمل والتطبيق ، ولهذا فان عمر فاخورى لم ينطو على الكتاب ويعتزل الناس والحياة بل صاحب الكتب والدفاتر ، وكانت الصدمات تحبسه فى بيته شهورا ، ثم تهدأ نفسه فيخرج الى المجتمع ليمارس الحياة والتعلم فى مدرستها .

وكان يشوقه أن يتعبد الطبيعة وهى الأم الأولى للانسان ، فما كان أرضى لنفسه من جلسة فى أحضان الطبيعة ، وقد دعاه ذات صيف فريق من صحبه ، أهل الكشاف فمضى معهم الى أفياء الطبيعة ومجاليها وعاش بين الكشافة يراهم فى الرياضة والمعيشة ، فاكتشف سر التألق الأدبى والفكرى فى هذا الأفق الطبيعى الذى

صفا ماؤه ورق هواؤه ، فدخل الى أعماق الانسان ليشعره بأنه ابن الطبيعة ولـكن من لحـم ودم ، ومن ذلـك الخين تهكم على الأديب القرطاسى الذى لا يخرج من دفتى الكتاب ولا يفهم سر الحيـــاة ولا يتذوق مباهج الطبيعة ، وكل هذه الامور تدلنا دلالة حقيقية على ان عمر فاخورى كان انسانا من لحم ودم وفكر حى قوى يريد أن يضم الى نفسه الوجود ليشعر بأنه حقا موجود ، وقد التقى بعمله هذا من غير أن يشعر أو يتكلف الدراية مع الفيلسوف ديكارت الذى كان مبدؤه الفكرى هو (أفكر فاذن أنا موجود ٠٠) ٠

فاذا رددت القول من اعجازه الى صدوره كما يرد الشعر فى البيت الواحد وجدت عمر فاخورى صدى شـــخصيتين عربيتين : المتنبى وأبى حيان التوحيدى ، فأبو الطيب جعل الكتاب خير جليس فى الأنام ، والتوحيدى ، عكف فى كتابه «الصداقة والصديق» على طبائع الناس فى المودة والاخاء ، وفاته أن يجعل الكتاب أبر صديق حتى جاء عمر فاخورى وترامت عليه أرواح المفكرين وهى ساكنة فى الكتب لتجعل منه صاحبا خالدا ، وكانت هذه الأرواح تسوقه الى محبـة الجماهير والاخلاص لحياتها ووعيهـا ، فنزل الى السوق والطريق لينهض بالشعب والأدب الى حياة تليق بالانسان وكرامة الأديب ٠

الفصل الثالث

من الأدب الى السياسة

كانت مغامرة رائعة وتجربة خطيرة ، اقدام عمر فاخوري الأديب المبدع والناقد المسدد على مزاولة السياسة فى وطنه بيروت بعد صمت حزين طويل ، قطع فيه مراسا فكريا عميقا ثم وصله بعطاء فنى حديث ، كانت فيه بشارة ابداع وتطور ملحوظ فى الحياة الأدبية والقومية على صعيد لبنان .

ان ممارسة السياسة فى البلاد العربية كانت ولا تزال فى اصطلاح أكثر الناس مقصورة على محترفيها ممن داروا معها فى مختلف وجوهها وعهودها متحزبين بالانتماء زمن الاحتلال وبعد الاستقلال ، أو منفردين مسنودين الى ما قبل الخمسين من هذا القرن ، فكيف أقدم أديب بيروت عمر فاخوري وهو فى زهوة مجده واتساع صيته ومكانته على هذا الاتجاه الشائك الذى لا يسلم من الخطل والعثرات فيه الا القليل ؟ ..

ذلك أن السياسة التى قال عنها الامام محمد عبده فى عصره « ما دخلت شيئا الا أفسدته » كانت تمثلها من ذلك الحين الى أيام عمر فاخورى فى مصر والبلاد العربية فئات من بيئات معروفة بالاقطاع والعشائرية والزعامة المتوارثة ، بينها أكفاء علماء وعملا وأكثرها توابع وأصدقاء .

وقد تداولتها أطوار الحكم ، لمسايرة الأمور ومفاوضة البارزين

كلما جد الجد فى هذه الغضبات الشعبية المتوالية لحرية الوطن وكرامته واستعادة حقوقه وسيادته ·

وكان عمر فاخورى الذى شهد صباه فظائع الاستبداد العثمانى من الشباب العربى الناقم على هذا الحكم الأسود ، فبدأ فى أدبه مكافحا سياسيا على الحداثة والحماسة المبكرة فى المنازع الاستقلالية ، ثم شغلته الدراسة والوظيفة عن السياسة حينا ، فاتخذ الأدب وسيلة للكفاح ، على أنه لم يكن فى فنه الذى استغرق مواهبه وطاقاته حاضرا كالغائب أو فى غفلة عن الدنيا وما فيها كالنائم المفتوح العينين ، بل كان يربط بين أدبه وحياة الناس ، والأدب فى أيامه كان لفظيا تقليديا يشكو أهله من حرقته وشقوق الأقلام التى يقطر منها الرزق الشحيح اذا لم يستعينوا عليه بالصحافة أو التعليم ·

فلما ظهر عمر بأدبه الحى الصادق وأفكاره التحررية والثورية تلفت القراء صوبه بالمحبة والبشرى ، وأحس الجمهور الواعى ان هذا الأديب ليس كغيره من الأدباء فى أسلوبه وآرائه ، ولا فى صوره ومعانيه ، ولم يكن عجبا أن يدرك القراء فى شعب قلت فيه الأمية والعامية الدهمائية أن عمر الكاتب البليغ فى غير تنطع ولا ترفع ، المتعمق فى غير غموض أو تعقيد ، هو الزعيم الفكرى للمثقفين والمتنورين فى بلاده ، وان كان عمر زاهدا بطبعه وطريقته فى الظهور بنفسه ، فان أدبه وحده كان يدل على حقيقته وجدارته ويجعل منه الصديق الصادق للجماهير والرائد للحركة التجددية ·

وكان القارىء منها يحس احساسا قويا بأن أديبه عمر لا يتملقه أو يسليه بفكرة فارغة أو يستهويه بعامية مبتذلة أو قصة ماجنة تصرفه عن مقومات حياته وانسانيته ، بل كان يرفع وعى القارىء اليه غير متكلف ولا واعظ ، فالاسلوب العمرى كان نسيج وحده فيما احتوى من رأى وثقافة ونقد ، وكان لاتصال هذا الأديب

بالشعب وانهماكه بشئونه وحياته أثر فى تفرده بمخاطبة الجماهير على قدر وعيها وفهمها دون أن ينزل بقلمه وتعبيره الى ركاكة أو تفاهة فقد عرف كيف يستهوى الناس بفنه وأدائه • حتى أخذت تتجاوب معه وتلقاه بذاته وآثاره فتزداد ايمانا بمواهبه ورسالته •

وكان عمر فاخورى يحس السعادة وهو يرى طائفة من الشعب متهمة بأنها لا تفهم الادب الرفيع ولا تتذوقه هى نفسها التى تستمع له محدثا وخطيبا وتقرؤه ناقدا وأديبا وقد شاقها أن تجد نفسها فى أدبه الحى ، الصادق التعبير والتصوير •

وما كان يغيب عن أديب بيروت أن قراءه من هـذه الجماهير المتفاوتة فى تحصيلها وثقافتها ومفاهيمها الاجتماعية والفكرية فقال عنها فى احدى مقالاته :

(لا مناص للأديب من أن يعرف حاجة الجمهور وطلبه ، ولكن أى جمهور ؟ هل ثمة جمهور واحد أم جماهير مختلفة ؟•• انالمسافة بين الذين لا يفهمون الا قصة أبى زيد الهلالى ــ وأمثالها وبين الذين تسمو نفوسهم الى «لزوميات المعرى» وأشباهها جد بعيدة ، ولاأحسب أبا زيد هذا مهما يكثر عديده ، قادرا ذات يوم على قتل المعرى ، ولا المعرى يقتل أبا زيد ، فكلاهما ضرورة للناس ، والادب فى كل أمة وكل عصر يظل بين هؤلاء وهؤلاء متجاذبا ، كل يشد الى ناحيته ــ ويعمل على شاكلته) •

وكان الناس فى عهد عمر يحسبونه أديبا للخاصة وان قراءة لم يكن فيهم الا القليل من العامة ، وقد فاتهم أن فى أوساط الجماهير عقولا متباينة فى الفهم والعلم تتلقى بالسماع والاطلاع آيات القرآن وروائع البيان وأحاديث المذياع بوعى عميق وتأمل طويل فيما احتوت من المعانى والصور ، فلا بدع اذا تصدى عمر لمحاورة الجماهير فيما يهمها أمره ، وكانت الامور ما بين الثلاثين والاربعين من هذا العصر مشتدة فى الشرق والغرب وهى التى حفزته للتحول فى أدبه ، فان

الحرب العالمية الثانية أعادته الى قلمه وبيانه مجندا للحرية والديمقراطية كما أعدته الأولى مكافحا على حداثته فلم يجد عمر مناصا من الانصراف الى السياسة ملتزما برسالته دون أن يتخلى عن فنه وأدبه ، فاتخذ من السياسة مدرسة فكرية جديدة ودعا الادباء للانطلاق من عزلتهم ليكون لهم رأى وموقف ونظرات فيما يبدو لهم من شئون بلادهم ومن القضايا العالمية .

وكانت السانحة لعمر ملائمة فى هذا الصدد للكلام على أدباء الحبر والورق الذين يعيشون فى معزل عن الجمهور ، فاذا قيض لأحدهم نهزة أو موسم بادر الى الظهور على المنبر بقصيدة أو خطبة لا تتغير معانيها مهما يتغير الحاضرون الذين كانوا يتململون من التكرار والعبث فى الأوتار فينصرف الناس وهم أشد ظمأ الى الينابيع .

وكان أدباء القرطاس يتجافون عن الينابيع ، فتهكم عليهم عمر بسخرية أدارها على نفسه قبل غيره ، فتحدث عن رهين الكتاب الذى كان فيه حتى خرج من محبسه كما تخرج فراشة الحرير من شرنقتها فتنفس الهواء الطلق وانطلق الى السوق والطريق متسائلا متأملا ، مكررا انفلاته من وحدته موثقا ارتباطه بزمنه ووطنه والمجتمع الذى يعيش فيه ، ثم يعود بالملامة على أدباء المداد الذين اعتكفوا فى بروجهم وزواياهم مؤثرين السلامة والعافية ، «لا أذن تسمع ولا عين تدمع» مصرين على أنهم من الأدباء ولكن من النسخ المتشابهة ، ولما ترامى اليهم أن عمر انصرف الى السياسة هالهم هذا التحول والتنازل فقالوا « ان الكتاب والشعراء هم « حفظة القيم الانسانية الباقية » وخالقو المثل العليا فلا ينبغى لهم أن يسفوا أو يبتذلوا أو يتعرضوا لما لا يعنيهم » .

وكانت السخرية العمرية من هؤلاء المعتزلين استعلاء وتخوفا ووهما ، حديث الناس فى أدب عمر الذى لم يتغير ، وهو يتحول الى السياسة التى أراد أن يرفع من شأنها ويجعلها بأيدى الذين يتطلعون

فى خطاهم نحو المثل العليا ويحققون بالقـــدوة والدعوة كل خير لأمتهم وما ينبغى لها من تعزيز وتقويم لحياتها ونهضتها ٠

ان عمر فاخورى لم يبق فى كفاحه السياسى دائرا حول البناء الجديد لوطنه المستقل وسيادة الشعب المستقل الممثل فى الجماهير على السواء ، «لا لملة أو نحلة أو مذهب دون مذهب» فقد أخذ عمر يشير فى خواطره اللماحة الى العلة الوبيلة الكامنة بالطائفية والاقلية اللتين نماهما استعمار بعد استعمار ونفخ فيها من نفسه ودسه ، غير ان عمر فاخورى الذى عقد الامل الاكبر على رجال الاستقلال بأن يكافحوا الاستغلال فى عهدهم وميثاقهم رأى ان الجهـــاد فى هــذا السبيل كفيل بالوحدة الوطنية التى يعوزها بعد الجلاء « مصنعـان جديدان هما الثكنة والمدرسة ، على ألا يقوما على الأساس «المزمن» ٠

ولما تمرس عمر بالسياسة وآفاقها لم تكن مقالاته فيها ونقده بدعا فى محتواها وأدائها وانما كانت جدية ودية تطيب لقارئه من مختلف الفئات المتفاوتة فهما وعلما لما فيها من صدق التهكم والدعابة ودقة التعبير والمعرفة ، ولو لم يكتب عمر مقـــالاته السياسية على سجيته المعهودة وأسلوبه فى الايجاز الملىء الذى لا يعرف حشوا ولا لغوا لكانت هذه المقالات كغيرها من المقالات الصحافية والثقافية ، ولم يكف عمر وهو فى ساحة السياسة عن رمى المتوجسين والمتشائمين بسخريته المستحبة ، فازداد عدد اللوامين الذين شق عليهم أن يرهق عمر نفسه بالسياسة وهو فى غنى عنها ، وهم لا حديث لهم يخلو منها ، وقد فاتهم ان كبار الساسة فى الغرب هم من الادباء والحقوقيين والمفكرين حتى العلماء ، فان مختبراتهم كانت تطـل على تصاريف السياسة فى بلادهم كهنرى بوانكاريه ــ العالم أخى ريمون بوانكاريه من الرؤساء السابقين للجمهورية الفرنسية ومن أعضاء الاكاديميات سياسيون لهم آراؤهم ومشاركتهم فى الحـــكم والسياسة ، وفى المسائل المحلية والعالمية فما ضاق بهم الشعب أو استنكر تمرسهم

بمقاليد الأمور ، وكيف غاب عن ناقدى عمر فاخورى أن أكبر أدباء مصر فى عصر عمر كانوا من السياسيين الحزبيين كطه حسين الذى انغمس فى السياسة ودخل حزبية بعد حزبية وعباس محمود العقاد الذى عرفته السياسة قبل عمر ناقدا عنيفا فى صحف كبرى وفى حزبية قوية وله مواقف فى تاريخه النضالى مشهودة مسئولة ، ولم يغب عن الناس ذكر الاديب الرائد محمد حسين هيكل الذى وصل بالسياسة الى الوزارة ومجلس الشيوخ ، وغير هؤلاء الرواد من الثائرين فى الادب ، كان كثير من المفكرين المصريين يزاولون السياسة على طريقتهم وربما لم يلمعوا فى ساحتها كما لمع البارزون الذين شاركوا فى بناء الادب الحديث نقدا وتأليفا وتدريسا ، وكان لسبقهم فى الاصلاح والتغيير فى مجال القديم والجديد أثر عميق فى تطور الفكر والثقافة والتعبير .

فهل كانت نقمة النقاد على عمر فاخورى لاشتغاله بالسياسة خشية سبقه الى ما كانوا هم أنفسهم يتوقون اليه فى حياتهم وكان فى النيابة والوزارة من عرفوا فى وطنه بالحياة الادبية والفكرية ، فلم يلقوا من الغمز واللمز ما لقى عمر الاديب الذى تطور فى أدبه وتغير فى كفاحه ورأيه ، فاندفع فى مقالاته النقدية مستطلعا ما وراء السياسة التقليدية من أمور مريبة تخدع الناس وتجعل منهم مطايا للمتزعمين والحاكمين ، وكانت كوارث الحرب الثانية وما جر على الانسانية طواغيت النازية مدار كلامه الجديد الذى حمل للناس ايمانه بالدول الديمقراطية ومنها السوفياتية التى كافحت الطغيان ، وقد جمع الفاخورى هذه المقالات فى كتابه « لا هوادة » وكانت سياسته لا تريد هوادة فى هذه المكافحة التى شغلت العالم فى ذلك الحين .

على ان هذه المشاغل العالمية لم تصرفه يوما عما كان يجرى فى الفلك الذى يعيش فيه وقد عاصر وجوها ورءوسا ما كانت تغيب حينا عن مسرح السياسة حتى تعود بعد حين فيرى المعارك التمثيلية

والمنافذ الخلفية والجسور المعلقة للعبور والظهور ، والبلاد تتحرر وتتطور لحكم نفسها بنفسها وتستبشر بجلاء الاحتلال وأخذ الحق والاستقلال • من يدرى فقد تقيض الظروف الجديدة لعمر فاخورى أن يبرز فى ساحته الجديدة ويلون حيث تاقت نفسه واندفع طموحه الى مجال يحقق فيه ما كان يريد فى أدبه لشعبه ، ولم يجد هو ذاته جديدا فى السياسة التى زاولها متطوعا مندفعا فما ينبغى للأديب المرتبط بالجماهير والمنغمس فى حياتها وهمومها أن ينأى عنها فمن الذى زعم بأن الفن يجب أن يغضى عن المساوىء ، ومن ادعى بأن الأدب رداء ينبغى أن يلقى على الشوائب والانحراف ؟ وهل كان الاديب أو الفنان الا رجلا من أمة وعضوا فى مجتمع كعقرب الساعة على الأكثر ؟ • انه متكلم بلغتنا ويستمد من بيئتنا ويعيش فى جونا ؟ هو ابن جغرافيته وتاريخه ، هو يأخذ فكيف لا يعطى؟••(١)

وكان عطاء عمر من فكره وشعوره ومن وطنيته وآثاره لا يقدر وهو الذى أخذت منه الصدمات والخيبات سعادته وحرمته الاقدار مودة الزوجة وأنس الولد ، فما كان منانا بعطائه ولا ضنينا بحياته للشعب والوطن بعد أن وهب لهما أدبه وكفاحه •

فاذا طال التساؤل عما دهاه فى عراكه الجديد وجدنا الاجابة من عمر نفسه فى قوله : « ما العمل ونحن أناس للحق والعدل والحرية قيمة عندهم ترجح كفته فى ميزان ليس أقل دقة من هذا الميزان الذى توزن به الطيبات من الفاكهة وغيرها فلا أقل من أن نؤيد بالقلب واللسان أولئك الذين ينتصرون للحق والعدل والحرية فى العالم » •

« ما العمل اذا كان لنا رأى فى كيف يجب أن تساس الافراد والجماعات وكان لنا نظر فى المبادىء التى ينبغى أن توطد وفقا لها علاقات بعضهم ببعض » •

---

(١) لا هوادة لعمر فاخورى •

« ما العمل اذا كان ثمة مثل أعلى لحيـاة الافراد والجماعات ينعمون كلما قطعوا شوطا نحو تحقيقه بأكثر ما يمـكن من الخـير والصلاح والطمأنينة ، وقد استهوانا هذا المثل الأعلى وشغف قلوبنا، فنحن راضون بأن نترسـم خطى قافلة الرسل والحكماء والمصلحين »

ولا بدع اذا اقتدى عمر الاديب فى نضاله الجـديد بذوى الرسالات والحكمة والاصلاح ، فالادباء والمفكرون طالما مشوا على آثار المرسلين والرواد فى كل عصر ، ولعل عمر فاخورى تأثر بآراء أفلاطون وأراد أن يكون كأنداده فى الشرق والغرب من الطليعة القيادية فى الشعب تنقد لتقوم الاعوجاج وتحمل مصـباح الفـكر والبيان ليضىء طريق الحـرية وتعبر عن الحيـاة الديمقراطية بكل ما تحمل من المعـانى والصور ، وليس على الاديب حرج فى أن يتناول القضايا السياسية بقلمه تحليلا أو نقدا ، فهذه القضايا تمس الجماهير ، وكانت هذه الكلمة المحببة الى عمر لا يخلو مقال له منها مستهزئا بمن داروا عليها بأشتات التأويل والتعليل ، وكأن من يسمون أنفسهم « الخاصة » ليسوا من أهلها فتهكم عمر بالمترفين الصلفين الذين ضاقوا بمقالاته السياسية ورأوا ما يتوهج بين سطورها من حمـاسة للديمقراطية زيفا فسموه ظلما ووصموه وهما ، وقد أراد أن يتناول بسخريته هؤلاء الحكرين المستأثرين فقال : ان أغلبية من هذه الفئة قد فتحت أبصارها على ذلك المشهد ، مشهد تقدم الجماهير حتى تسد الأفق بشىء من الذعر وكثير من الدهشة ، فلطـالما اصطلحنـا على تنحية « العامة » من ميادين الحياة العامة بما تمثله هذه الحياة من ضروب الادارة وأدوات الحكم وتصنيف العلاقات وتوزيع الخيرات وتقرير التكاليف ، كأن هذا جميعه متاع هؤلاء «الخاصة» ليس ينازعهم فيه منازع : لا شركة « للعامة » فى الحياة العامة ..

وقد عابت عليه هذه الفئة القليلة نزوله الى الجماهير مكافحا سياسيا فقال لمن سألوه : مالك وللسياسة ؟.. ــ غفر الله لكم ..

وحلف عمر فاخورى « بأن ليس بين هؤلاء الناصحين المخلصين الذين يسولون لى ترك السياسة من لا يشتغل بالسياسة ، يشتغل فيها جهده ، وفى الدائرة التى تتاح له ، وعلى الطريقة التى لا يملك سواها ..

وقال عمر : « وأعجب ما فى القضية انى لم أجد من هو على رأيى ومذهبى السياسى لأعزى نفسى موهما اياها بأن النصيحة خالصة لوجه الله » وبين الساسة الذين كان يراهم عمر مخلصين من حللوا لأنفسهم ما حرموه على عمر فعابوا عليه دخول «الهيكل المظلم» الذى ترتع فيه السياسة بما فيها من عتمات خافوا أن يبددها وكانت من مقتضياتها ، لكن عمر الهمام المقدام لم يقف أو يتراجع فى كفاحه وتجاربه فأحب كل من عادى أعداء النازية ومنازعهم العنصرية والاستعمارية .

ومثلما صنع عمر فاخورى الاديب اللبنانى فى التشنيع على طغيان النازية كان الاديب المصرى عباس محمود العقاد يستفظع بمقالاته النارية هذه الآفة التى اجتاحت العالم ، ولم يستطع انتصار السوفيات على النازية أن يجعله من الاصدقاء ، بل عاش عدوا للشيوعية يؤلف الكتب ضدها ويحذر منها ، ولعل عمر فاخورى فى آرائه الاشتراكية بدأ من حيث انتهى العقاد فيما أراد من الاشتراكية، فقد دعا أديب مصر عام ١٩٢٢ «الى مبادىء ديمقراطية مما لا يتنافى مع الاشتراكية التى هى استجابة لحاجة اجتماعية عرفها التاريخ وطلبتها الانسانية قبل أن تبشر بها تعاليم الدين والمفكرين ، وليست هى بعلمية أو مذهبية كما أعلنها ذووها من الفلاسفة والجدليين ، على ان العقاد بعد استنكاره للشيوعية ما كان يرتد عن خير ما فى المبادىء الاشتراكية التى تتطلبها الضرورة ومقتضيات العصر والتطور .

ولعل عمر فاخورى الذى تحرك احساسه الوطنى عنيفا مبكرا في ثورته المكبوتة ونفس عنها بباكورة قلمه «كيف ينهض العرب»، كانت فكرته الوطنية متعلقة بنزعته الانسانية التى تنفس بها وعبر عنها أدباء الطليعة والقومية العربية فى نهضتنا الحديثة . وكان عمر من هؤلاء المفكرين الدين تغلبت على ثورتهم التحرريه المنازع الانسانيه، فما آسفه أمر كما آسفه تخلف الأمة عن ركب الحضارة المعاصرة لما أصابها من طغيان استعمار بعد استعمار ، فكانت مظاهر التعسف والتخلف تحز فى نفسه فيستمد منها وهو أديب متصل بالجماهير عناصر مقالاته النقدية حتى تحول من الأدب الفنى الى السياسة مكافحا فى عراكها ، وطنيا اشتراكيا على طريقته ووفق آرائه ومفهومه ، وكانت الجماهير تفهم الاشتراكية بحسب حاجاتها واتجاهاتها ، فلم يحددها فى اطار أو ضمن شعار ، بل كانت هذه الاشتراكية عنده متفاوتة المعانى والصور بتفاوت الحاجة والاتجاه فى التفكير والبناء .

وكان عمر فاخورى بنزعته الوطنية والانسانية أديبا اشتراكيا سابقا أنداده بأشواقه وتطلعاته الى الأسباب والأدوات التى تبنى « المدينة الفاضلة » حقا وصدقا لا بالوعود والاحلام .

وكانت البطولة السوفياتية من أسباب صداقته لأهلها واعجابه بثورتها التى حطمت باب « سجن الأمم » وأطلقت القوميات من أصفادها والمذاهب الدينية من خوف الاضطهاد ، لا يستغل قوم قوما ، تلك هى المساواة فى الحرية (١) « وأن ليس للانسان الا ما سعى » فى تلك البلاد النائية الغامضة التى أخذت تبنى شعبها على قواعد جديدة فى الحياة العادلة الفاضلة ، وأن اتحادها قوة تنشد سلما عالميا تعامل فيه الشعوب والأمم على قدم المساواة ، فهو خطوة

---

(١) ص ٢٢ الاتحاد السوفياتى حجر الزاوية لعمر فاخورى .

واسعة بل قفزة قفزها التاريخ نحو المثل العليا حاملا فى صدره التراث القديم ، تراث الشوق الى المدينة الفاضلة » .

« ان المبدأ الأساسى القائل بأن الانسان هو محور العالم وأنه أثمن ما فيه وان مبادىء الثورات الانكليزية والامريكية والفرنسية وأن النهضة العلمية التى تستهدف السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخير الناس ، كل هذه العناصر قد اجتمعت كأنها على موعد لقاء فى نظـام الاتحاد السوفياتى ، انه حجر الزاوية فى بنـاء العالم الجديد والانسانية الجديدة » .

فى مثل هذه الآراء والصور التى استهوت عمر فاخورى كان يفكر ويتدبر ، انه يعشق الديمقراطية والقيم الانسانية وقد قيل له: «انهمـا فى حمى الاتحاد سـائدان موطدان يعطيان النـاس أوثق الضمانات وأبقاها على أن الحرية للأفراد وللشعب ستكون أوسع وأشمل والمساواة بين الأفراد وبين الشعوب ستكون أصح وأصرح » فازداد عمر تقديرا لمن يسعى الى حرية الأفراد والشعوب .

وعلى هذا النحو من الاتجاه الفكرى بنى عمر فاخورى وصحبه صداقة جديدة نحو الاتحاد السوفياتى ، صداقة الأنداد لا الأتباع، فقد تخيلوا « الاتحاد » صورة مصغرة رائعة لما يجب ان تكون عليه دنيا الغد حيث تتبوأ لبنان وسائر الأقطار العربية مكانتها المشروعة ويعيش اللبنانيون والعرب جميعا كشـعوب حرة مسـتقلة آمنـة سعيدة » . (١)

هذه خطرات من سيرة التحول فى أدب عمر فاخورى الى الكفاح السياسى الذى عاناه وانصرف اليه وكابد فيه العناء واللوم والاتهام، على أنه كان يلقى العزاء والرجاء فيمن منحوه الثقة والصـداقة وأعدوه للغد المرصود ، وهو الذى فك الرصد عن بابه فى الأدب وانطلق مع الجماهير الى ينابيعها التى فاضت بالفن والحياة ، وما أكثر

(١) من أقوال عمر فى هذه الصداقة .

ما رأى عمر نفسه كالشيخ يعود اليه مرح الشباب بغتة وقد ضم الى صدره كتابا ، والى خاطره رأيا فأسرع فى خطاه كأنه وحبيبته على موعد لقاء ، وما كانت حبيبته متمثلة بعد التى غاب وجهها عن بيته الا فى الجماهير التى استيقظت على غير ميعاد ، وكان عمر يحمل لها الطمأنينة والأمل والمحبة ، وطالما بحثت عن مثله بمصباح ديوجين فأرهقها الظمأ والتلهف حتى وجدت عمر ، ووجد هو نفسه حيث كان طموحه القديم فى هذا اللقاء الجديد ٠

لقد اقتحم عمر معترك السياسة بقلمه وايمانه ، ولم يحمل سلاحا حزبيا أو مذهبيا ، فكانت تجربة السياسة قاسية وغالية قدم ثمنها من لحمه ودمه ومن حلمه وصبره، وقد يكون حمل عليها مغبونا أو موعودا ٠

فمن المآخذ المحسوبة على عمر فاخورى فى تحوله من الأدب الى السياسة أنه بقى وفيا لثقافته الفرنسية منوها بجهاد شعبها فى الحرب العالمية الثانية وتعلقه بالمثل العليا وأنه يحمل على كاهله أعظم تراث ثورى عرفه التاريخ (١) فى حين كانت بلاد عمر وجيرانه وثورة الجزائر ماضية فى نضالها للتحرر من الاحتلال الفرنسى ، لكن عمر الذى تحول سياسيا متطوعا لم يشأ أن يكون عنيفا طاعنا من خلف فى حكم مدحور شارك فى مناوأة النازية من باعوا وعدا باطلا للصهيونية باغتصاب فلسطين من أهلها ، بعد جلائهم عنها عام ١٩٤٧ فعد عمر أعداء النازية من الحلفاء أصدقاء للحرية التى ضنوا بها واستكثروها على البلاد العربية ، فكانت ورطة من عمر ما كان أغناه عنها وهو الذى سلمت وطنيته من الشبهات ٠

ومهما تكن هذه الهفوة السياسية من عمر فاخورى أو بالأحرى النبوة التى آخذه بها نقاده ممن لم يعجبهم انهماكه فى السياسة ، فانه بقى فيها أديبا مهذب القلم عف البيان ، صادق الوطنية ، ولم

---

(١) لا هوادة ص ٦١ ٠

يكن متندما فى تحوله الى ما كان يخشاه المتوجسون فى معترك محموم ، اذ كان عمر مقداما يريد أن ينشىء للمفكرين والمثقفين مدرسة سياسية جديدة فى عهد بلاده الجديد ليكونوا قوة فعالة فى بناء المجتمع وتحرير العقول ، وما أشبه عمر فاخورى الأديب السياسى الاشتراكى فى رسالته الفكرية بما صنع من قبل أعلام المذاهب البانية للانسانية ، فقد التف حوله أصدقاؤه من الأدباء والنقاد واعتنقوا الرأى الذى أخذ به عمر فى حياته وكفاحه وتابعوا المسير فى دربه الطويل ٠

***

النيابة الخائبة

\- ١ -

لم يعبأ عمر فاخورى بما تقول عليه المرجفون فى السياسة والأدب منذ انضم الى اخوته المكافحين عدوان النازية والفاشية فى الحرب العالمية الثانية ، شارك فى تقديم المقالات لمجلة « الطريق اليسارية » وكانت أقواله كما عرفها القراء منشورة فى المجلة أو مجموعة فى كتب لا تحمل أية دعوة شيوعية ، وكانوا يخلطون بين اليسارية والاشتراكية ، فلما رحب عمر بصداقة الشعوب الحرة ومنها الاتحاد السوفياتى وجد المرجفون مجالا للغمز واللمز ، فما قابلهما الأديب الحر بغير التهكم والاستهزاء . وما كانت صداقته الصادقة وليدة المحاكاة والعدوى أو الفكرة الطارئة ، بل كانت تبعا لبطولة قضت على باطل فى النازية والفاشية فاستهوت عمر أخبار هذه البطولة ومنابتها وما يجرى فى آفاقها من تطور وتغيير فيما يحقق الخير العام ، حتى خيل الى عمر أن « المدينة الفاضلة » قد قامت فى تلك الأرجاء النائية التى أنبتت تولستوى وتورغنيف وبوشكين وغوركى وغيرهم من أدباء الانسانية والحرية .

وكان عمر فى كفاحه السياسى كدأبه فى أدبه يكتب على سجيته ومن وجهة نظره وشعوره غير هياب ولا متردد ، فرصانته وحكمته كانتا وراء تعبيره وتمحيصه ولم تجرؤ صحيفة مأجورة على أن تجره فى تيارها أو تستغل أدبه لمآربها ، فعمر فاخورى الأديب الصادق كان يكره المداجاة والمصانعة ويتجافى عن الصحف التى تتلون فى الظروف والأحداث وتتفنن فى الرياء والادعاء ، اما التى

التزمت وجهة وطنية وثقافية فقد كان يرتجيها لخير الوطن والجماهير ويمدها بمقالاته وأحاديثه ولا يفتر عن تتبع الصحف العربية والأجنبية ، فيتجنب المريب منها والمبتذل ، على أنه لا يدرى كيف وصلت الى بيته ذات يوم صحيفة متواضعة محتشمة كحسناء فقيرة تحترم ذاتها ..

لم تكن هذه الجريدة الصغيرة تحمل اسم المسئول عنها أو المدير لتحريرها ونشرها فيقبل عليها بشوق ولهفة ، وكأنها رسالة خاصة فتختلط في ذهنه صور وخواطر لا يعرف كيف يبتدىء في حوادثها وكيف ينتهى منها ، اذ كان لها فى الجريدة المتواضعة معنى جديد وصدى غريب وكأنه ينظر اليها من زاوية غير مألوفة ولا مبتذلة لكنها الزاوية « المستقيمة » الصحيحة ، منها يسعى فى السبيل الأقوم الى الغاية الأسمى ، تلك الصحيفة هى آخر مدرسة تعلم فيها عمر كما قال « سداد الفكر وصدق العمل » سواء فى اعلانها على النازى حربا لا هوادة فيها أم فى صمودها للدفاع عن خبز الشعب وحريته وسلامته » (١) .

تلك الصحيفة الصغيرة المحتشمة هى « صوت الشعب » الهادىء الصاخب والخفيض المدوى بصدقه وحقه ، فعرف عمر بعد حين أن بين الذين أنشئوها مفكرين ثائرين منهم «خالد بكداش» (٢) وبعض رفاقه « يضطهدون فى السجن أو يطاردون فيما هو أضيق من السجن لكن صوتهم لم يحبس وجهادهم لم يكتم ونورهم لم يطفأ ، كانت أصداء من الصوت المدوى ومآثر من الجهاد الدامى وأشعة من الضياء المحيى تملأ بيت عمر وتشغف نفسه وتنير بصيرته .. »

---

(١) الحقيقة اللبنانية

(٢) من زعماء الشيوعية فى الشرق العربى منبته دمشق وقد انتخب نائبا فى مجلس النواب السورى ..

في ذلك العهد القاتم الراعب الذى ملأ الدنيا تهاويل نازية ومكايد استعمارية ، كان عمر فاخورى يقرأ أية صحيفة تتحدث عن الحرية والشعب . وفى ذلك العهد .. قال عمر فاخورى فى مقاله عن « صوت الشعب » وأصحاب الصحيفة : « لم أكن أعرف خالد بكداش ورفاقه ، كان ينبغى لكى أعرفهم أن أمسى سجينا متطوعا ، أو طريدا مختارا ، وليس هذا بالأمر السهل نظريا أو منطقيا على الأقل ، ثم جاء عهد أحسن حالا ، عهد مايزال فى تحسن ، كالمريض الذى يتماثل الى العافية ، ومن أياديه عندى أنى عرفت فيه خالد بكداش الخطيب الذى يحلق كالنسر فى آفاق الفكر والبيان » (١) .

عرفت خالد بكداش ورفاقه الكثيرين اليوم والأكثرين غدا ، الذين يعملون كالنمل ، ويجنون كالنحل ، ويمشون كالجنود الأبطال فى سبيل أمتهم وحقها فى الحياة الحرة الرغدة الآمنة ، لقد علمونى بالكلمة والمثل أن المولهين بحب الحرية لا يرجعون برغمهم خطوة الى وراء الا ليقفزوا خطوتين الى أمام » (٢) .

كذلك قال عمر فاخورى فى أحباب الحرية المؤمنين بالمبادىء والقيم التى كان ولا يزال يناضل من أجلها « وهى التى تجعل للحياة قيمة ، بل لا قيمة للحياة بدونها » فآلى عمر على نفسه أن يبقى على هذا المبدأ مهما يعترضه من داء وبلاء ، انه يريد أن يحقق بالعمل ما دعا اليه بالقلم ، وقد شجعه الاستقلال اللبنانى واستهلال العهد الجديد ببشائر الديمقراطية التى لبست سيرته ورسالته ، وأخذت الجماهير تتطلع اليه كرمز لتحررها ومنارة لطريقها ، ليكون ممثلها فى مجلس النواب ووعدته بتأييد اختياره وايثاره ، لكن عمر تحير فى أمره ، فانه يعرف أن المال هو الوسيلة الى النيابة ولا مال عنده، ولأن أصوات الناخبين كما قيل له تباع وتشترى فتحدث متهكما

---

(١) الحقيقة اللبنانية لعمر فاخورى ص ٣٢ .

(٢) «الحقيقة اللبنانية» لعمر فاخورى .

ى برنامج انتخابه عن قضية البيع والشراء وقد عرفها لما مارس لتجارة فى دكان أبيه ، « لو كانت أصوات المغنين والمغنيات لكان يتصور أنها تشترى كى تعبأ فى الصندوق ٠٠ لا صندوق الاقتراع، بل الفونغراف » .

« ان أقلية الناخبين التى تبيع أصواتها هم من الفقراء مادة ومعنى ، اما الأكثرية وهم الأطايب والأخيار والأفاضل والواعون ، فلا يدخلون فى الانتخـــاب ويبـــدو انهم يعتزلون بل يهربون من المعركة ، انهم يحفظون أصواتهم كأن هذا الحفظ ضرب من الاحتكار، فأى الفريقين أشد اساءة للحقيقة ؟

وكان عمر فاخورى عدو الاحتكار فى كل أمر وقد تناوله بقلمه الناقد وكان حديثا دائما فى أيام الحرب ، فعالجه بدقة ورجع الى مقدمة ابن خلدون فى سبقه علماء عصرنا الى هذا الموضوع الخطير ، ولما أقدم على ترشيح نفسه للنيابة مستقلا قدم بيانا لجمهرة الناخبين فى بيروت عام ١٩٤٣ قال فيه : ان منهاجه هو المنهج الذى لم يتبدل منذ عشرات السنين لسبب واحد هو انه لم ينفذ ....

وقد تتشـــابه المنـــاهج ، لكن الأشخاص يختلفون لا بأشكال أنوفهم ، بل بما يبعثون فى النفوس من ثقة » وأخذ عمر فاخورى يتحدث فى صدد الأصوات التى تباع وتشرى عن « الرجل الذى باع ظله » (١) وقد قرأ قصة بهذا العنوان فتساءل من هو التاجر السعيد الذى يشـــترى ظلال البشر ؟ لو علمتم ان الذى اشـــترى من بطل القصة ظله لبطل عجبكم ، هو الشيطان لمآرب فى نفسه ، ان ابليس وحده يعرف كيف يتاجر بالظلال ٠٠ وبالأصوات » .

ولم يبق من أشباه الأصدقاء والمتسائلين من لم يعجب لاقتحام عمر طريق النيابة دون مال ، لكنه لم يدركه اليأس من النجاح ، فان

---

(١) للكاتب المصرى فتحى غانم قصة بعنوان «الرجل الذى فقد ظله» وقـــد نشرها منذ بضع سنوات .

الجماهير وعدته بأصواتها مجانا ، وكانت ثقتها ومحبتها هى الثمن، وقد ظن أن بيروت ولو كانت بلد « الصفقات التجارية » ، لكن « الانتخاب هذه المرة لن يكون سوى صفقة شعبية وطنية « نظيفة » فان بيروت التى ترسل أشعة الثقافة والوعى السياسى ، فتضىء ما حولها لن تبقى فى الظلمة بعد اليوم ، ان عليها واجبا بأن لاتنسى انها عاصمة شعب حر فى وطن مستقل » .

ولو امتدت حياة عمر فاخورى الى أيامنا لوجد امتدادا لما كان عنيه باعة الأصوات فى معركة الانتخاب لمجلس النواب وانقباض المثقفين والأدباء عن الخوض فيها حافظين أصواتهم فى صدورهم كأنها ضرب من الاحتكار ولا يقتحم المعمعة من المرجوين الا من تمرس طويلا بالحياة والمجتمع ، وضمن الفوز بالوسائل المصطنعة .

لقد أقدم عمر منذ ربع قرن على هذه المغامرة الشريفة بعد حساب طويل خيل اليه فيه انه سديد مضمون وكانت السيرة المثالية والرصيد الفكرى والاجتماعى رائده فى هذه المغامرة ، لكن عمر المناضل المستقل كان أشبه بصاحب مركب تتلاطم الأمواج حوله ولما وجهه البحرى البارع الى هدفه ، وجد أمامه صخرا عتيا فتحطم المركب ونجا النوتى بأعجوبة ...

كذلك كانت المعركة الانتخابية ولا تزال فى لبنان وبعض البلاد العربية أقوى من تيارات البحر وكم تتحطم على الصخور مراكب فيها ، والنيابة فى الشرق والغرب ذات مزالق ، يعصف بها الاستغلال والتضليل وتجرى تحتها ينابيع المال سرا وعلانية ، وبيع الأصوات فى سوق النيابة أمر قديم ومعروف فما بال عمر فاخورى سقى الله مرقده ما يسره من الغمام والرحمة ، يستهزىء بمزالق الدرب الوعر الذى حفيت فيه أقدام ودميت ، ولبست فيه أقدام غيرها نعالا من الذهب ؟

ما أحسب عمر كان جاهلا بالمصير لكنه كمناضل سياسى وأديب

الى أحب أن يقتحم هذا الغمار لعله يفوز بالنيابة الصادقة ويجدها وسيلة لممارسة الوطنية العمرية فى خدمة الشعب .

والشعب نفسه ، وسامحه الله ، فى القديم والحديث ، تتجاذبه تيارات والأعاصير ، فيترامى على الفـــائدة الجائمة المستعجلة ثم يلبث بعد حين أن يدرك الخطأ فيعكف على نفسه باللوم والندم .

ولئن خاب عمر فى أخذ النيابة ، انه فى نظر الحقيقة والتاريخ كان يعيش فيها خارج دارها ، فى قلوب الجماهير وفى صميم الوطن فى رسالة الأديب ، وما كانت الخيبة له فى مسعاه وانما كانت النيابة نفسها التى تنقاد غالبا للباذلين والمسنودين والمتكتلين .

ولئن استعان عمر فاخورى بصحبه من العاملين والكادحين فى بيروت ومنهم جمهرة اليساريين المخلصين ، انه ما من بأس عليه ولا لوم بهذه المعونة القائمة على الصداقة والثقة ، فلا يسبح المرء الا فى الماء لكنه قد يغرق اذا لم يحسن العوم ...

على أن رداء اليسارية قد لبسه كثير ممن لا يفرقون بين اليمين والشمال ، وسرح على أشتات المناكب والظهور لكن تتباين تحتــه الشخصيات وتتفاوت المرامى والأهداف ، وما كان رداء عمر مستعارا ولا زائفا ، فهو من صنع لبنان وابداع الفكر والبيان ، وقد لبســه عمر مدعوا لغدكبير ، مرجوا لشعبه ووطنه ، لا منتميا أو مداجيا ، ولا بدع اذا أعجبه من الاشتراكية واليسارية ما رآه لا يند عن طبعه وأدبه وتعاليم المفكرين والمصلحين والمثل العليا التى تشد القـدوة اليها الآمال والأعمال ولكم لبس الرداء المستعمار من لم يكن على قده وسعى اليه أناس يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، عظامهم من ذهب وأرضهم من اقطاع وبيوتهم فى قصور ، بل رأينا جامعيين ومفكرين يصطنعون القناع اليسارى ويشدون بشكله الزيارة المجانية للمدينة الفاضلة ، فاذا حققوا التجوال تلفتوا على مختلف الأبعـــاد والآفاق يلتمسون جديدا مفيدا ...

وغير بعيد عن تاريخنا وكفاحنا من نبت عظمه من الذهب وتورم من الترف ولم يتحرج من عناق اليسار واستغلال أصـــواته للوصول الى الحكم والبرلمان ، فليس من حرج على عمر فاخورى أديب الحرية والجماهير والابداع ، اذا تلفت صوب اليساريين الذين أحبوه مخلصين ولم يورطوه فى الحزبية والمذهبية ، بل وعدوه بنصرته فى المعركة الانتخابية ، لكن التجربة والمغامرة باءتا بالفشل .

ولعل عمر فاخورى بعد هذه الخيبة قد وافاه العزاء بالوعد فى منصب السفير اللبنانى بموسكو اذ أعد لهذا المنصب عدته ومظاهره، وفيما كان يهيىء متاعه ويعلل نفسه بلقاء « المدينة الفاضلة » بوغت بالمطل والسكوت ، فكان حرمانه الظالم أشد من الخيبة ، على أن حياة الرجال الأفذاذ مكتوب عليها النكبات والفجائع ، فمات عمر – كما قال أحد أصدقائه – وفى نفسه شىء من موسكو ، ولو أنسىء فى أجله لفتحت له المدينة الكبرى صدرها وتلقت فى جوانحها أديبا صادقا فى سفارته الفكرية والدبلوماسية ...

***

صداقة الجماهير

عرف عمر فاخورى الصداقة والصديق على غير ما عرفهما أبو حيان التوحيدى فى كتابه ، وكان وفيا لهما معتزا بالصادق فيهما ، كارها من يمتهن الصداقة ويصطنعها للمآرب والنفوذ ، وقد وجدها فى المرأة أبقى من الحب ، وتاقت نفس عمر الى مواجدها فى الجماهير التى كانت صورها تملأ خاطره وسطوره منذ نشأ حتى اكتهل ، فلما اندمج فى أحداث المجتمع والوطن وخطوبهما اشتد تعلقه بالجماهير التى بادلته حبا بحب ، فكانت صداقة عمر صدى لأعماقه التى انعكست فى أدبه وكفاحه ، وما قيمة الحياة بغير جماهير أو وطن ؟ انها هى التى تملؤها وتشغل وجودها ، وحوادثها ، فكان عمر فاخورى يجد نفسه مندفعا نحو المجتمع بحافز لا يقاوم ، ولم يكن ذلك منه استغلالا أو تطرفا وشذوذا ، بل كان اندفاعه محض ود واخلاص ، فآثر صداقة الجماهير على كل صداقة ولو كانت للفن والأدب ، ولو فسرنا تحوله عن الأدب فى ظروف وطنية وقومية لرأينا الصداقة الصادقة هى التى كانت من أسباب انصرافه الى السياسة ومتاعبها .

وقد حدثنا فى مقالاته أن « صوت الشعب » كان يستهويه بما حمل فى ذلك الحين (١) ومن نغم جديد فى التغنى بالديمقراطية والحرية وكان العالم العربى الذى خرج من ظلمة بعد ظلمة لم يسمع فيها غير التعلل بالمستقبل كثير الاصغاء للأصوات الجديدة التى شاعت فيها المعانى الأخلاقية والانسانية والقيم الفكرية ، وكان عمر

(١) فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

فاخورى محققا لهذه المعانى فى مكافحة الظلم والظلام مع اخوانه شهداء الحرية والسيادة العربية ، فكان شعور هذا جوابا على كل من يهتف لدعوة التحرر من العدوان الاستعمارى ، ولو كان فى أقصى الأرض ، فلما تنادت الندوات الفكرية فى لبنان والبلاد العربية لنصرة الذين دحروا الطغيان النازى فى الحرب العالمية الثانية ، كان عمر مع صحبه جماعة المكافحة لهذا الطغيان يتتبعون أخبار الاتحاد السوفياتى الذى رد الجيش الألمانى فى اجتياحه أوروبا من أقصاها الى أقصاها باسطا طاغوته ، مأخوذا بنشوة الغرور حتى كأن به مسا .

وما كادت أخبار عمر فاخورى فى الصداقة الجديدة تتناقلها الألسنة ، حتى أخذ التقول عليه يدور بأشتات التفسير ولو أن أصحابها عرفوا عمر فاخورى على حقيقته فيما صدر عن ثقافة ومحنة ودراسة لما عجبوا أن يكون منه هذا الاتجاه المفاجىء ، فقد حسبوا أنه أصبح بين يوم وليلة يساريا متحيزا الى وجهة دولية خاصة ، وهو ماكتب دراسة فى هذا الموضوع أو وجه دعوة حزبية أو رسالة ماركسية ، وانما كانت الآراء الاشتراكية التى أعجبته من صنع المفكرين والمصلحين فى الشرق والغرب وقد دعت حاجة الجماهير اليها فى طغيان الترف والباطل والاستعمار فوجد ما جد فيها من تطور لا يخالف تفكيره القديم والحديث ، وبخاصة بعد أن سئم الناس سياسة المحتلين ومذاهبهم فى الحكم والثقافة والادارة ، ولم يكن عمر فاخورى معصوب العينين حين أحب هذه الصداقة للشعوب الحرة وكأنه سبق العصر فى اتجاه الذين تبعوه متأخرين .

ولو أنصفت الأقلام فى سيرة عمر لميزت بينه وبين الانتهازيين لتلك الصداقة ، اذ داروا فيها ذات اليمين وذات الشمال وجعلوها وسيلة للتحول والتحدى ، ولو حققنا فى نفس عمر فاخورى وتوصلنا الى تركيبها الروحى لوجدنا نزعة الاشتراكية قد نبعت من صميم

نفسه ، حتى ولو لم تكن هناك أية جهة لمنابع هذا المذهب لقرره هو على طريقته فى الابداع والتعبير ، وهذا سر اخلاصه لاتجاهه الأخير فى الأدب والحياة وصداقة الجماهير من أجلهما ٠

ولم يكن عمر فاخورى فى صداقته للجماهير وعلاقته بقضاياها خالطا بين مقادير الوعى فى مفاهيمها وفئاتها وهو من أدرى الناس بما بينها من تفاوت صنعته الطبيعة والحياة أو اخترعته مظالم الانسان للانسان لتقيم السدود والقيود بين جمهور وجمهور ، وفى مقال لعمر عنها ، « لا مناص للأديب شاعرا أو ناثرا من أن يعرف حاجة الجمهــور وطلبه ، فان المسافة بين الذين لا يفهمون الا قصة أبى زيد الهلالى وأمثالها وبين الذين تسمو نفوسهم الى « لزوميات المعرى » ، وأشباهها البعيدة ، جد بعيدة ، والأدب فى كل أمة وفى كل عصر يظل بين أهل اليمين وأهل الشمال متجاذبا ، كل يشد الى ناحيته ويعمل على شاكلته » ٠

فهل فرق عمر فى صداقته للجماهير فيما قدم لها من فيض عقله وقلمه واخلاصــه كمــا فرق بين مفاهيمها وادراكها وهو الذى اندفع من أجلها على علاتها اذ لم تكن لها يد فيها ، فتحول من الأدب الفنى الصرف بظرف عصــيب للكفاح الســياسى بأدب حى صادق لا غلو فيــه ولا شطط ، كاشفا بلبــاقة مقرونة بالنكتة عن مواجع الواقع الذى يعانى الويل والقلق والحرمان وعن المغالطة والهدهدة فى هذا الواقع الذى تتجاذبه تيارات تموه حقيقته حتى تضــيع ، فكان عمر فاخورى فى عصره من أشجع الأدباء فى نقده وموقفه وما أقل الأدباء الذين كانت لهم مواقف وتجارب تلقاء السيطرة الغــاشمة والحقيقة الجاثمة ايثارا للسلامة والعافية ، وكان عمر لا يزال يعيش بيننا بأفكاره التحررية التى تسربت الى الجماهير فهزتها وأيقظتها وما كان عمر فى كفاحه الأدبى يلتمس غاية لا تدرك ، فالجماهير من حقهــا أن تتفهم وتتعلم ، وأن تفــكر بمصــيرها وتقيم الدليل على

جدارتها بما تطمح اليه ، ومن طباعها وأذواقها ما يسمو الى ثقافة عالمية وأدب رفيع ، فكان صديقا مؤمنا بها وبامكان دفعها بالكلمة والايمان بحقها ونفسها نحو الحياة اللائقة بالانسانية والوطنية ، « وليس حسبنا أن نعيش كما نعيش ، ينبغي أن نفكر كيف يصح أن نعيش » (١) .

وقد يكون عمر فاخوری فی صداقته للجماهير واعتناقه طوابع الديمقراطية والقيم الفكرية شبيها بالأديب المصرى محمد مندور، الذى تحول مثل عمر فاخورى من الأدب فى مقالاته ومؤلفاته الى السياسة والواقع الاجتماعى فى ظلالها ورواسبها ، فتلاقى الأديبان الرائدان المصرى واللبنانى على البعاد ، واختلاف البيئة والتعبير والمزاج ، فى الوجهة والرسالة من أجل الانسان العربى الحديث الذى وضعته وسائل الاستعمار والاستغلال فى مهب الرياح ، فانطلق كل منهما بعدة ضخمة من الموهبة والثقافة والدراسة ليهجر ذاته وراحته ، مندمجا بالجماهير صديقا أديبا يستمد موضوعاته من حياتها ومن الواقع الذى يعيش فيه وتعيش هى فى تطلعاتها وحيرتها وحقائقها ؛ وقد اتفق لمندور ما اتفق لعمر فى الدراسة التى تلقاها على أقطاب الحرية والقانون والفكر فى باريس حيث تفتحت مواهبه ، فلما عاد منها وتمرس بالمحاماة زمنا جفاها ونأى عنها ، وأخذ يتصل بالجماهير ويعمق احساسه بحياتها ، عاكسا فى أدبه ونقده صورا من هذه الحياة منطلقا من خلال التجارب الواقعية الى صداقة من يصدق فى كفاحه للحرية والسيادة القومية ، وكانت لمندور مثلما كان لعمر من الآراء الاشتراكية ما جعله يتطلع الى الصداقة السوفياتية التى دمرت بطولتها طغيان النازية والفاشستية ، فتلاقى الأديبان الجريئان — المصرى واللبنانى — على بعد الديار وتقارب الأفكار ، فى كفاح أدبى دائب من أجل الجماهير وتعبئة وعيها بالثقافة والفن والمحبة .

---

(١) عمر فاخوری فی کتابه «لاهوادة» .

وقد لقى الاثنان خيبة فى الانتخاب للنيابة وبلادهما توطد استقلالها فى بناء حياة جديدة فعادا الى الأدب الذى جعلاه رسالة الحياة ، ولم ينس عمر فاخورى الذى هجر ذاته وراحته من أجل الجماهير أن يرتد الى هذه الرسالة بعد أن هزل جسمه وتضخم كفاحه فكان يتعلق بالكتاب والقلم ويتشبث بالحياة ليحق الابداع الذى توخاه فى أدبه (١) ، ولمسه الناس فى نتاجه .

على أن المعانى الانسانية والأهداف التحررية التى أعجبت عمر فاخورى وصحبه ومحمد مندوروغيره من أحرار الفكر ابان المعارك الكبرى لخلاص العالم من شر النازية وعتوها لم تكن جديدة ولا وافدة ، فقد تفتح وعيهم عليها منذ نشئوا وحملوا فى كفاحهم رسالتها مقتدين بمن سبقهم ممن كافحوا استعمارا بعد استعمار ، واستهزءوا بمكايده ونفوذه ، مؤمنين بمستقبل العرب فى الحرية والسيادة القومية ، لكن الوطن الذى ابتلى باحتلال الانكليز أو الفرنسيين كابد التخلف والهوان وهما من وسائل الاحتلال الذى استغل الطائفية والمذهبية ، فلما استبشر الشرق العربى خيرا بما صنع الاتحاد السوفياتى لنصرة الحرية والديمقراطية وبناء الانسانية على المعرفة والعدالة والتعاون الصادق فى الحقوق والتكاليف ، هلل المفكرون العرب والمثقفون لعهد جديد تتحرر فيه البلاد العربية من الاحتلال والاستغلال وتأخذ بتوثيق الاخاء والروابط التاريخية والفكرية بين جميع المواطنين بارادة شعبية واحدة وسيادة قومية تحقق الحرية التى حمل العرب لواءها فى القديم والحديث ، وقد عرفوا صداقة جديدة غير صداقة المحتلين الغاصبين « صداقة الوطن المستقل لوطن مستقل والشعب الحر لشعب حر ... » (٢) .

---

(١) من آخر آثاره الفنية فصلان من رواية (حنا الميت) .

(٢) عمر فاخورى فى «الحقيقة اللبنانية» .

وكلمة الشعب وحقيقته غدت الشغل الشاغل لعمر فاخوري بعد اعتزامه الخوض فى معترك السياسة ومشاركة صحبه فى مكافحة النازية وصداقة الاتحاد السوفياتي ، اذ كانت قضايا الوطن والمجتمع فى عهد الاستقلال تملأ تفكيره وشعوره وانساق فى همة المكافحين من أجل الكادحين الذين يعيشون على هامش الحياة ، وفى صدرها وذراها يعيش أميون فى الفكر والسياسة ، فجند نفسه وقلمه للنقد والتبصير ، وأخذ يعبر فى مقالاته عن الفكرة الديمقراطية بعد أن طال بحثه عن ملامح الجمال والفن بين السطور والقوافى ، متنقلا فى أدبه وكتبه بين بيت من الشعر أو أهزوجة شعبية هزت حسه بأوتارها الصادقة ، ، فاذا هو عاكف على نفسه وقلمه وأسلوبه لاتخاذ موقف صراح من الخلاف العالمى فى الحرب ، فحدثنا فى مقال طريف عن الجريدة الصغيرة التى كانت تدخل بيته صيف العام ١٩٤٠ على استحياء وتواضع وقد خلت من اسم المسئول عنها ، وعنوان المطبعة التى تخرجها ٠

لقد أحب عمر هذه الصحيفة التى دخلت بيته متواضعة فى زيها كحسناء فقيرة محتشمة ، لكن تحترم ذاتها ٠

وما كان أعجل عمر فى ذلك العهد الى قراءة الصحيفة الحرام التى كانت تتسلل الى منزله من كوة الباب كأنها من الأشياء الخطرة أو المهربة ، فيلقاها عمر فاخورى بشوق وابتسامة ، ويعكف عليها كأنها رسالة خاصة تأتيه على حياء وخفاء فيقرأ محتواها والهواجس تختلط فى نفسه وذهنه اذ يجد فيها معانى بعيدة «وزاوية مستقيمة»، فيتعلق بما حملت من الأفكار التى كانت تدور فى خاطره وبيانه حتى عدها « آخر مدرسة تعلم فيها سداد الفكر وصدق العمل » فقال : ان هذه الصحيفة المتواضعة ليست بحاجة الى تضخيم صوتها اذ لا صوت يعلوه فهو صوت الشعب ٠٠ أو الجماهير التى يتألف

منها ، وكأن فى هذه الصحيفة الصغيرة قارورة مارد ، فما كاد عمر فاخورى يفتح السدام عنها مرة بعد مرة حتى انطلق منها ذلك المارد وملأ بيت عمر بسحره ، ولم تكن هذه الخاطرة العابرة غريبة عن عمر ، اذ كانت تستهويه الأساطير ويدعو لاصطناعها فى الفن القصصى ، ولما تكلم أول وهلة فى الاذاعة اللبنانية خيل اليه أن صوته قد انفصل عنه وانطلق مثل مارد بين السماء والأرض ، وكذلك كان « صوت الشعب » فى تلك الصحيفة المتواضعة يملأ خواطره وكأنها حسناء خالبة تسللت اليه من الغيب لتشغله عن نفسه وهمه بمفاتنها ، وما كانت هذه المفاتن فى وجدانه ورأيه الا حقائق الجماهير التى كانت تناديه بأن ينطلق من أجلها وكان يكتب لها على اختلاف بيئاتها وفئاتها ، وما أكثر ما خاطب الشباب العربى الصاعد : « بأن يرفعوا الجمهور بحيث لا تبعد الشقة بينه وبين السواد منه » قائلا فى كثير من السوانح : « لقد بعد عهدنا بالفكر الوثاب حتى أمسينا كآلة قديمة الطراز صدئة الجهاز » .

وكان عمر فاخورى من أبرز القلة المعدودين فى الفكر العربى الحديث ، ولقد مثل وثباته فى التطور وحقق طموحه فى ابداع الأدب ومحاورة الجماهير .

الفصل الرابع

كاتب المقال

في مطالع هذا العصر أخذ المقال العربي خطابيا وأدبيا يتطور في أدائه وموضـــوعه اذ كان يكتب على طريقة المقامات الحـريرية والهمذانية مشحونا بالصناعة اللفظية والمعاني السطحية ، فلما خلع النثر عن منكبيه هذا التكلف والزخرف وتحرر مما عوق تحريره وانطلاقه تعـددت فيه فنون القـول ، فاتجه اليها الكتاب بحسب منازعهم واختصاصهم فوسعت الموضوعات والخطط والشخصيات ، فمن المقالات ما كان يكتب لتصوير الحياة الاجتماعية والتعبير عمـا يلابسها ويحيط بها من خير أو شر دون تقيد بنسق محدد أو موضوع معين ، ولا يختلف بعضه عن بعض آخر الا باختلاف الفكر والاتجاه .

وأفضل المقالات في أدبنا الحديث ما حمل من المعاني والصور أكثر مما حمل من الألفاظ والخطوط ، ولعل المقالة الأدبية الممتازة هي التي تتميز بأسلوب كاتبها وتعبر عن شخصيته وفكرته ، خالية من عيوب الأداء في اللغة ، محتفظة بقيمتها الفنية وانطباعات صاحبها وتجاربه الوجدانية والنفسية .

ولم يكن بطيئا أو عسيرا تطور المقال في قالبه ومحتواه وهو الذي بدأت في بيانه وتوجيهه نهضتنا الفكرية والقومية ، فقد تأبى الوعي والذوق على قديمه وأخذ يتحرر من معوقاته في الانطلاق وتأثر الى أبعد الحدود بنماذج الثقافة والفن بين الشرق والغرب ودراسـة

اللغات والآداب العالمية وكان لانتشار الصحافة العربية التى قامت على المقال فضل فى تجديد التعبير وتنويعه . وقد فتحت هذه الصحافة صدرها لمقالات الكبار من الكتاب والمفكرين ، وكان للمجلات الطليعية فى النصف الأول من هذا العصر « كالمقتطف » و « الهلال » و « الرسالة » و « الثقافة » فى مصر ، و « العرفان » و « الكشاف » و « الأديب » و « المكشوف » فى لبنان أثر عميق فى تطور المقالة على اختلاف أهدافها وفنونها واختصاص كتابها وقد شاركت المرأة العربية أديبة وصحافية فى انشاء المقال وتطوره وبرز أعلام الأدب الحديث فى هذا الفن الوسيع الذى استطاع أن يحمل الفكرة والصورة معا بعد أن كان متأرجحا بين تعبير لفظى أنيق تتجلجل فيه العبارات الموسيقية الرنانة ، لكنه خلو من نقطة يدور حولها الاداء وبين مقال عن انعكاسات الوجود فى ذات الكاتب لكنه هزيل التركيب ، ولكم طال الجدل والحوار حول مسألة القيم والأساليب فى المقالات الأدبية حتى رأيناها جامعة بين أطراف الموضوع حابكة نسيجه بما يستهوى القارىء ولو كان جديا أو نقديا . وقد تمثلت القوالب ومحتوياتها بما قدم رواد التطور الفكرى والتعبيرى فى مقالاتهم وكتبهم وكان أبعدهم صيتا وتأثيرا طه حسين والعقاد والمازنى والرافعى وأحمد أمين وزكى نجيب محمود وغيرهم كثير ، ومن نوابغ اللبنانيين المبكرين فى تطور الأداء جبران والريحانى والنعيمة ومى زيادة ، ثم اتسع التطور فى أدب لبنان لاتساع الثقافة الغربية فيه واتصاله بمذاهب الفكر المستحدثة ، وكان هذا شأن الذين لمعت أسماؤهم ما بين الحربين العالميتين ، وفى طليعتهم عمر فاخورى أديب بيروت الذى آثر المقال بفنه وأسلوبه ، فهو واحد من أدبائه المعدودين فى لبنان والعالم العربى كالأمير مصطفى الشهابى وشفيق جبرى وعمر فروخ وكرم ملحم كرم وخليلى تقى الدين وخليل رامز سركيس وأندادهم ممن أوتوا خصائص المقالة وثقافة الفكر والحياة ، وكان لكل منهم أسلوب عرف به وأسبغ مسحة من ذاته وسجاياه .

وكانت مياسم الفن في مقال عمر فاخوري تجمع بين الايجاز والامتلاء ، ولكم عرفنا أدباء معاصرين أطالوا المقال واستطردوا فيه حتى خرجوا عن أهدافه وأضاعوا القارىء فى الحشو والتكرار وفى الترادف والتنميق ، لكنّ الذين تفوقوا فى المقال وفاقا لحاجة العصر وذوقه وثقافته هم الذين احتلوا الصدارة فى المجلات والصحف ، وكانت تقوم على المقال فى الأدب والسياسة والاجتماع ٠

فاذا كان علماء التعبير قد عرفوا المقال بأنه كتاب صغير ، فان عمر فاخورى الأديب البيروتى الثقة قد ألف كثيرا من هذه الكتب على قلة انتاجه ، والقارىء لمقالاته يشعر أنه فى صميم الموضوع ٠ وأن الكاتب الأصيل يأخذه ويأتى به مثل من ركب زورقا فى بحر هادىء حتى يوصله الى الشاطىء الذى يريد ، ويحس القارىء فى مقالات عمر شيئا غير التسلية وتزجية الوقت فينتهى منها الى مكتسب فكرى وذوقى فى موضوعاته الطريفة وتعبيره البليغ الذى سلم من الركاكة والعجمة ، ودخل محتواه النفس والشعور ٠

ومن عناصر مقالاته الجدة والابتكار على ترادف الموضوعات والأيام ، وكم يجد القارىء فيها تمازجا فنيا وفكريا منضوحا من أدب الغرب وثقافته بالمقارنة والموازنة والاقتباس ، ومقالات عمر على قلتها تقنع الباحث والدارس باحتوائها صور عصرها وتمثيلها أدب صاحبها والمجتمع الذى عاش فيه ٠

على أن الذى زاد فى رجحان هذه المقالات وقيمتها الفنية أسلوب عمر الذى انفرد به وشف عن شخصيته ومراميه وكان طابعه السخرية والتوثب ، وان له لعبارات بين حاصرتين يكاد القارىء والسامع أن يجد فيها جلجلة غير مؤذية وروعة لم يشاركه فيها أديب ، واذا كان بعض النقاد والكتاب يعودون الى مقارنة عمر بصاحبه الجاحظ ، فما أبعد ماذهبوا اليه فى طريقة السخرية والمقال ، فالجاحظ مكرر

للجملة ، موثق للمعنى المعاد ، لكن روحه المرحة تشبه روح عمر مع الفارق فى الشكل والاتجاه ·

ولعل وجه المشابهة بين عمر والجاحظ جاء من أن الممارس بالتمحيص والتتبع لمقالات عمر فاخورى يجد فى تعبيرها وموضوعاتها من القصص والشعر والتصوير والنقد الأدبى والدراسة التحليلية ما لو تفرد صاحبها بكل فن من فنونها لأوفى على الغاية ، لكنه جمعها كلها فى طاقة واحدة فجاءت أضمومة زهر منوعة الشكل والعبير ·

لقد كان عمر فاخورى متميزا بارزا فى أدب عصره بالمقال الوجيز الملىء وبضم مقالاته فى كتب مطبوعة بعد نشرها فى الصحف والمجلات اذ كان يجمع كل طائفة ذات نسق واحد وموضوع يكاد يكون واحدا فى كتاب ، وهذا ما كفل لأدب عمر فاخورى البقاء والتداول ، وسيبقى مقال عمر فاخورى على تطور النثر وتعدد ألوانه مثالا يحتذى فى التعبير الأدبى الحديث ، على حين أهملت مقالات كثير من أدبائنا المعاصرين لأنها متشابهة وقد عاشت لتؤدى فى صمتها فكرة عابرة لا يربطها بالحياة الا ظهورها فى الصحف والمجلات ، ولو حاسب قراؤها أصحابها على حرصهم فى نشرها وطبعها لوجدوا أنفسهم قد تبعوا أصواتا فارغة لها لا تحمل نغما أو رنينا ، ولا يمكن أن تعود فى الوجود ·

ولولا الروح الخالدة والاتقان فى الأداء فى مقالات الجاحظ والتوحيدى وأمثالهما لما بلغت عصرنا وكأنها اليوم تكتب ولناـ تقال ··

وكذلك أدب المقال عند أنداد عمر فى عصرنا ستترامى أصواتها على العصور القادمة وكأنها تعيش فيها لما احتوت من قيمة فنية وصدق فى التصوير والتعبير وما تريده الانسانية فى كل جيل ، وما كان لمقال عمر أن يبقى مستحبا على تطور الذوق والمقاييس لولا أسلوبه الذى ميزه من أمثاله الكتاب ·

النـــاقد

لقد أوتي عمر فاخوري في أدبه طبيعة النقد وثقافته ، وكانت نظراته المحصة تستجلي بسرعة وشمول أشتات العثرات والهنات في آثار الفكر والأدب ، ولم يكن حافزه التهكم والتبرم بما كان يقرأ ويسمع للتشفي والتحدي ، كما كان دأب أكثر النقاد في أيامه ، وانما كان عمر في أدبه ونقده يتوخى تحرير الفكر والأداء والاجادة في الموضوع ومحتواه ، على أن القارىء يحس في مقالات عمر النقدية سخرية من الثقلاء الذين تكلفوا الأدب وزخرفوا التعبير وهو أجوف الفكرة وينكره الواقع ولا تنبض فيه الحياة ، فكانت مياســم عمر واسعة وكأن بيده رملا يذره بنقده على رءوس فارغة ومؤلفات من حبر وورق .

ولم يكن نقده في الأدب منصبا على كل قديم ، مفضلا كل حديث ، بل كان يعطي الحق كل ابتداع أو اتقان في الشعر والنثر ، ولو كان ممعنا في القدم ، وما كان همه أن يفضل لفظا على لفظ أو معنى على معنى ، فان نقده الذاتي والموضوعي معا كان يلم بالآثار الأدبية باحثا عن تعبير سليم وتفكير حر فيهما طعم ولون من ذوق العصر وأطواره فكان شأن نقده فيها حفاظا على أصالة اللغــة في طريقة الأداء ، وعمق الصورة ، وفيما أرادت ألوانها وخطوطها متهكما على أدباء المداد الذين ارتبطت قلوبهم وألسنتهم بما جفت فيه الحياة من لغة رنانة وعبارات منبرية وأفكار من الهباء ليسدوا بأيديهم تطور الفصحى والبيان ، وكأنما أرادوا حجب الشمس بأكفهم عن العيون لكن الأصــالة بقيت تضيء في بلاغة الفن والأداء لأنهــا مع الزمان وليسوا بأقوى منها ومن طبيعة العصر .

كان عمر متعلقا بحياة العصر وأدبه ، فأراد بنقده أن يكون أدبنا الحديث صادق التعبير عن المجتمع الذى يعيش فيه فحمل بنقده على طواحين الألفاظ والقوالب الجاهزة التى تتجافى عن مطالب القراء ، « وفى الصفعة الأدبية بضاعة للسوق مختلفة النسـسيج والألوان • خاضعة للعرض والطلب ، وقد سئم القراء الموعظـة المكررة ويئسوا من تنفيـذ محتوياتها ، وقد تكون البضـاعة الرديئة أو المزجاة هى الرائجة ••• لكن الجيدة منها يبقى ثمنها فيها • »

ولو أن عمر الفاخورى الناقد وقف من قرائه وآثار زملائه من الأدباء موقف المعلم والواعظ لانفض القراء من حوله وتجهمت له الأقلام والنفوس ، لكنه ما نقد نصـا أو بحثـا ، أو مر بنقـده على قصيدة أو مقال دون أن يتصدى لذاته بالنقد ويود لو استطاع أن ينفح القراء من مختلف الجماهير بما يرضى عقولهم وأذواقهم ويرفع من شأنهم وشعورهم ، ولقد وقف فى أيامه ومطالعاته على مذاهب الفكر والنقد فى أدب الشرق والغرب فما آثر منها مذهبا محددا أو اتخذ طابعا تقليديا فيما تناول من تمحيص وتحقيق ، بل كان معاينا متتبعا من قريب ومن بعيـد وعلى سجيته وطريقتـه هبات فكرية وخصومات أدبية بين كبار الكتاب والنقاد ، فلم يشهر سلاحه أو يتحيز الى فئة ولو أعجبه تطورها فى الأداء والفكر المعاصر واقتباسها من ثقافة الغرب ما أعانها على هذا التطور •

ولم يفته الوقوف على الضجيج أو التهاتر حول القديم والحديث والصراع بين التطرف والمحافظة فى أدبنا المعاصر فكان اذا خلا لنفسه وقلمه ضحك طويلا لما رافق تلك المقالات النقدية والجدلية التى جمعت أضغانا وعدوانا لوجه الشيطان وبقى صداها وميراثها على ترادف السنين حتى أيامه وأيامنا ، وقد طوى الموت أكثر الذين شاركوا فى النقد وخصوماته أو حملوا راياتها ووجهوا حملاتها فتركت منافع ورواسب فى أدبنا وثقافتنا مقرونة بذكريات أليمة ، لأنها لم تخضع

لقواعد الفن والأدب المجرد ، وانما كان أكثرها رداء وستارا لمتنافسين فى اللغة والمناصب والشهرة .

وحق لعمر فاخورى أن يسلم قلمه من الخوض فى تلك المعارك النقدية التى ملأ ضجيجها حينا من الزمن أرجاء العرب منذ كتاب « الأدب الجاهلى » لطه حسين عام ١٩٢٦ الى الأربعين من هذا العصر ، ولم تخل بيروت مدينة الصحافة والثقافة وندوة الجامعات والجمعيات من تحاور دار فيها عنيفا واتهام مشبوه حول نغمات ناشزة كانت تتسلل الى المسامع والنفوس فى أعقاب المحن السياسية والدعوات التحررية لكنها لم تلق الصدى الذى كانت تطمع فيه ، منها النزعات الفينيقية والعامية والاغراء بالحروف اللاتينية على نقيض ما وقع فى .. ـ من المنازع الرجعية كالفرعونية والانفصالية الاقليمية فان بعض المرموقين فى الأدب والتدريس والوظيفة كانوا يديرون الحوار حولها، ليدسوا مآربهم منها نافخين فى نارها حاجبين النور والغرض عن تلاميذهم وقرائهم ؛ على أن من الحق أن نذكر رجوع أكثر الكبار الى الصواب فبقيت الخفايا فى بعض الأعماق .

أما فى لبنان فعلى الرغم من الحاح هذه المحاولات وتطاولها حينا بعد حين ، فان عمر فاخورى وأنداده من النقاد اللبنانيين لم يأبهوا لها ليجعلوا من حطبها وقودا ، وما كان لعمر فاخورى الثائر فى نقده لاستفحال الداء القرطاسى والمغالطات فى حياة الأدب الحديث ليعبأ بصرخات فى الهواء كانت حناجرها من الرعب والتعصب فبقيت الحقيقة تلقاءها مستهزئة متهكمة ، وكان عمر يقدس حرية الفكر ، لكن التحريف باسمها والتزييف للواقع كان يتركهما لوعى الشعب الذى عاش فيه ، أما اذا تناول أجنبى مسألة عربية من وجهة نظره ، لا من الوجهة الحقيقية فكان قلم عمر مبادرا الى التنقيب والتعقيب فيما يعيد الحق الى نصابه وقد أفرد لنقد المستشرقين كتابا سماه « آراء غربية فى مسائل شرقية » بين فيه الخطأ والدسيسة .

ومن عجب أن عمر فاخوري على تعدد النواحي في أدبه لم يستطع أن يحصر نفسه طويلا في نطاق محدد من نقده وتمحيصه ، فهو وراء الحقيقة فيما كان يكتب ويخطب وفيما وجد من سوء تأليف وتركيب ومن وقوع المعنى والفكر في غير موضعه وتجافيه عن روح العصر وذوقه ولعل هذه الناحية التي تفرد بها قد انحصرت في فنه النقدي الذي لبس أسلوبه الرشيق ، ففي تهكمه ودعابته ، وفي جده وتجرده ، كان أداؤه يعج بالصور الحية والألفاظ الدسمة المعبرة فيدرك القارىء الواعي ما يريد عمر وتقع في النفس خواطره وهو ينقد بدلالة مؤثرة وحجج بالغة ·

ولم تكن مقالاته النقدية مقصورة على لون واحد في فنون الأدب والحياة ، وانك لتجد مصداق هذا في كتبه ، ففي « الباب المرصود » ضم عمر مقالاته حول الشعر وبعض الشعراء في عصره وهذا الكتاب يكاد يؤلف وحدة موضوعية في مضمونه وفصوله وكان عمر يتملص من أسر الموضوع الواحد ، لكنه اختار فصوله مما نشر في الحقبة السعيدة من عمره ماعدا مقال « المأدبة » وكان الخاتمة ، ولعل عمر الذي أعد كتابه بعد صمت حزين شاء أن يجعل « الباب المرصود » فاتحة عهد جديد له فقال :

« قد لا يكون لهذه الفصول التي ألمت بموضوع الشعر من بعض نواحيه قيمة في ذاتها لكن لها على الأقل قيمة تاريخية في حياة صاحبها وحده ، أما قيمتها في حياة الأدب فللقارىء الكريم أن يردها الى « ما قبل التاريخ » ·

وكانت طبيعة هذا الكتاب تصويرية تهكمية يخرج منها القارىء بصورتين لا ثالثة لهما ، الأولى أنه أخذ مسلة ونخز بها بعض الشعراء والنظامين في زمانه كما ينخز صاحب الحمار حماره ليسرع في المشي أو يعتدل ، والثانية فيها تقدير لبعض الملهمين المجددين الذين اقتبسوا من ثقافة الغرب وحافظوا على الأصالة في

التعبير ، فوضع عمر فاخورى على جباههم أكاليل نسجها من غـاره وهو بهذا الصنيع أمسك بميزان النقد الشعرى على نحو لم يزاحمه فيه ناقد فى وطنه ، وهذا الميزان كانت تمسك بأمثاله فئة قليلة من النقاد المصريين ، وكان مارون عبود شـيخ الأدباء فى لبنان يحمل رسالة نقـدية فى الأدب والتأليف الحـديث ، لكن طبيعته الهزلية واضطراره للمجاملة أفقدا نقده القيمة الموضوعية وتركه يغص بذاتية جارفة .

أما عمر فاخورى الذى جمع بين القيمتين والصـــورتين فكان مثل صديقه الروحى ومعلمه أناتول فرانس القائل : الناقد حبيس فى قفص نفسه مثل طير » ومعلم عمر أنكر التجرد فى النقد ومن هاهنا كان عمر لا ينجو مثله من التأثر فكان نقده جامعا بين الذاتية والموضوعية ولم يكن منهجيا تقليديا ، بل صادرا عن ثقافة واسعة ، وموهبة فى التمحيص والتمييز خصبة فكان بأدبه يشق عليه أن يمر بمواقع الزيف والتحريف دون أن تظهر بمقالاته الدلالة عليها ، على انه لم يؤلف قصصا وموضوعات رمى فيها الى تصوير الحق والباطل والخير أو الشر فى مضمونها وانما اصطنع فنه فى عبارات تومىء بخفة وحجة ، وترمى بدقة الى هدفه ، حتى اذا ألقى فى سطوره ما يريد وقف من قارئه غير بعيد تاركا له حرية الرأى والذوق والتعليق ، وكأنه كتب قصة فنية لا نقدا موضوعيا فينساب القارىء فى مقال عمر مأخوذا بسحر أسلوبه ورهافة احساسه وانفراده بطريقته فى النقد ، ولعله ألهم تحليل الشعور والأفكار التى تنتفض وتهتاج فى المنقود اذا جبهه قلم صريح بالحقيقة ، ولهذا فان عمر فاخورى الناقد كان يغلف مطرقته بالقطن ، فيضرب ولا يؤذى ويبدأ بنفسه قبل غيره فى دعابة مستحبة ، ولكم وجدنا من النقاد من جردوا سلاحهم بألسنة حداد وهم أولى بردها على أنفسهم وآثارهم ، ولقـد مررت بخاطرة سكبها صاحبها على الشاعر والفيلسـوف المعاصر « بول

كلوديل » ليغسل وجوده بنارها ، فكان صداها سيئا عند الأدباء المعتدلين ، وهذا يدل على سوء النقد فى أدب الشرق والغرب عند من تحيروا فى آرائهم وتحيفوا آثار غيرهم ، فان الضغينة أشفت نفوسهم الصغيرة التى ضاقت بتفوق الملهمين والمطبوعين ، فجعلت الطبيعة قصاصهم فى قلوبهم وأقلامهم لم تنفث الا سما ولؤما ٠

وفى النقاد من برزوا أيام عمر بالمداورة فراغوا من القارىء والكاتب لا رفقا واشفاقا ، بل تحيزا وملقا ، وهذا لا يجوز أن يسمى نقدا ، ولو طال عمر عمر لرأى فى أيامنا ساحات النقد خالية خاوية الا ممن استغلوا الخلو وصفا لهم فنقروا كما تنقر الطيور ، وضاعت نقداتهم بين اشتات النظريات والمذاهب الوافدة فلا يروقهم منها فى التعليق والتطبيق الا ما كان منها ضاربا على أوتارهم أو عابثا بأفكارهم ٠

ولابد أن يكون عمر فاخورى قد سكب فى نقده حمما فى نفوس الذين لم يستطيعوا أن يتطاولوا عليه من ادعياء النقد ، فاستتروا وراء الاشارة والأدب لينصحوه بأن يتحامى السياسة وهو فى اصراره عليها لتبيان الحقيقة فى مفاهيمها ومراسها مبررا الغاية فى اقدامه وهو الأديب الصادق مع نفسه وغيره بأن رسالة الأديب تقتضيه الارتباط بزمنه ووطنه ، لا بأوراقه ودفاتره فحسب بل بكل ما يضطرب فى الحياة والمجتمع ليعكسه فى تعبيره صورا واقعية وسطورا ناطقة بالمعانى التى يريدها : والا فأن هذا المجتمع الذى يعيش فيه ويستمد منه عناصر فنه قد يستغنى عن أدب لا يجد نفسه فيه ولا يعبر عن حياته ، وويل للأديب الذى يعد مسئولا ومرجوا اذا اكتفى بالأخذ دون العطاء وتخلى عن رسالته فى النقد والتبصير٠

يجد الباحث فى أدب عمر فاخورى منذ بدأ التعبير بالقلم عن ذكرياته وهو طالب ناشىء أو أديب كبير ، أن بواكيره وآثاره فى رسائله ومقالاته وفى خطبه وأحاديثه لم تخل من الفن القصصى الذى أوتى عمر موهبته وأصوله وتلقى ثقافته من ينابيع الحياة وتجاربها وقرأ فيه الروائع العالمية ، لكنه تخلى عن هذا الفن وتجافى حينا ، ولم تكن آثاره فيه خصبة أو متكاملة ، ولو انصرف الى فن القصة لكان مبدعا بشهادة ما قدم من هذا النتاج القليل المبعثر ، فهو من هذه الناحية والبداية شبيه بالأديب المصرى توفيق الحكيم الذى انتصر فيه طالب الفن والادب على طالب الحقوق ، وكاتب القصة والمقال الوجيز على مؤلف الدراسة الأدبية والجامعية وغيرها ٠

ويبدو أن عمر فاخورى الذى سبق أنداده وأترابه فى زمانه الى فن القصة فى بلاده كانت تستهويه المجلات والمسلسلات العربية التى عنيت فى فاتحة عصرنا بنقل القصص والروايات الأجنبية الى لغتنا ، فحدثته نفسه على احدانه بترجمة أقاصيص من الفرنسية كان يحفظها فى دفاتره ولا ينشرها ، وربما استعارها منه أصدقاؤه ليقرءوها فيسعد برضاهم عنها ٠

وقد بقى عمر على ترادف الأيام واتساع تفكيره بشئون الفن والحياة متتبعا مظاهر الحركة القصصية فى أدب الغرب وبعض البلاد العربية ومنها مصر التى لمع فيها بعض الموهوبين فى القصة والتمثيلية كالتيموريين : محمد ثم محمود وطاهر لاشين وحسن محمود وابراهيم المصرى ويحيى حقى وغيرهم من أدباء الفن القصصى على ضفاف النيل ، وليس كل قصصى بأديب ٠

وكان هذا الفن الأصيل يجرى فى لحم عمر ودمه وعلى لسانه وفى بيانه لا تشغله عنه دراسته الجامعية المتقطعة فى بيروت وباريس فيودع دفتره بعض تجاربه القصصية أو خطوطا ورءوس أفكار لقصص يريد أن يكتبها ، فهو وثيق الصلة بالحياة الاجتماعية والشعبية فى بيروت ، يركب « ترام البسطة (١) » مع التلاميذ والعمال ، وقد يبقى فى أوقات فراغه متنقلا بالحافلة الكهربية حتى يهبط منها ليجلس على الشاطىء أو فى المقهى ، فيملأ عينيه وأذنيه وقلبه واحساسه من تلك المشاهد الطبيعية والبشرية ، ثم يرتد الى بيته مغتبطا بما رأى وسمع ، جالسا من فوره الى جدته العجوز ، أو التاريخ الحى ، كما كان يسميها فيحاورها ويسألها عن أخبار بيروت فى القديم والحديث وتستهويه فى حديثها الأساطير والحكايات فى أسمار الشتاء قرب المدفأة ، وينظر عمر الى الحياة اليومية بتكاليفها ومفاتنها ، متأملا متسائلا ، كأنه رقيب أفلاطونى بينه وبين نفسه أو بينه وبين صحبه ومن يلقاهم فى الطريق والسوق وقد يطيل الجلوس فى مقهى « الحاج داود » الجاثم على البحر فتعود الى خاطره ذكرى الصياد الذى تعلم عمر على يديه الصبر ...

وفى مقهاه المفضل كان يطيب لعمر أن يرصد حركات عجوز يلعب « النرد » ويبدو للأنظار كأنه يبكى ، فيهم عمر بسؤاله عما يبكيه ، لكن الشيخ يمضى فى اللعب وهو يضحك من خصمه ويبكى فى الوقت نفسه ، وبكاؤه كضحكه فيقول عمر فاخورى : ان صورة هذا العجوز وهو فى ركن من أركان المقهى أروع من صورة المستحيى بلا حياء ، وأعجب من صورة المتعجب من غير عجب ، هو حزين ، جد حزين ، كأنما نعيت اليه نفسه ، ويلعب بالنرد ولا يمسح دموعه بحسبكم أن تتمثلوه شجرة من الصفصاف المتهدل الأغصان الذى يلقبه الفرنسيون بالبكاء ، أو أن تتصوروا سماء تمطر ولا ماء ..

---

(١) من الاحياء القديمة فى بيروت .

هذه صورة قصصية من صور عديدة تصيدها عمر فاخورى ، وقيدها فى دفاتره بعد أن استمد خطوطها وألوانها من الواقع والطبيعة على سيف البحر فى بيروت قرب « الزيتونة » ، وقد سمى عمر شيخه الضاحك الباكى « كهاكه » وكانت هذه التسمية من كتاب للزمخشرى ، قرأ فيه عمر وصفا للحجاج بأنه كان قصيرا كهاكها والقهقهة أو « الكهكهة » تسمية لما يعرف بالضحك الهستيرى ...

ولا نجد فى المنتوج اللبنانى الحديث أديبا بيروتيا عمق الفكر والشعور بمدينته مثل عمر فاخورى ، وقديما كتب مقالا رائعا عن وجهها وتطورها ، تحدث الناس بروعته طويلا ، اذ وجدوا أنفسهم فى سطوره وموضوعه ، وازدادوا بعده اعجابا بفن عمر فى صوره القصصية التى رأوا فيها بيروت القديمة الجديدة ، المتطورة المتغيرة فى معالمها ومجاليها منذ هبت عليها رياح العصر ، فلم تخل مقالات عمر من تصوير شائق لناحية فيها ، وما أكثر الجوانب البيروتية فى أدب عمر وآثاره التى ماجت فيها خصائص القصة واندمجت بأسلوبه.

ولقد أعد عمر فاخورى فى كراريسه أمثلة وصورا كثيرة كان يريد أن ينفخ روح الفن القصصى فى تدوينها وسطورها ويجعل من شخوصها وحوادثها أبطالا يتنقلون بين الناس بأسمائهم وطباعهم فيتحدثون عنهم خيرا أو شرا ويحملون وهم على الورق انعكاسا لما عرف عمر من حياة الناس فى رحلاته اليومية أو الأسبوعية من بيته الى عمله أو تجواله « ثم يعود الى بيته ــ والعود أحمد ــ مهنئا نفسه بسلامة الوصول كالآيب من سفر بعيد » (١) و « هو اذ يعود لايكتفى بأن يرحل فى المكان ، بل هو يريد أن يرحل فى الزمان فيجلس الى جدته يسألها ويحاورها ...

ويبدو أن عمر فاخورى كان يعتزم نشر قصصه ثم يتردد ويحجم

---

(١) لاهوادة لعمر فاخورى ص ٨٨ .

لأنه يجدها دون ما ينبغي لها من تقويم واجادة وكان يعز عليه أن يخرج قلمه لونا فى الأدب جرى فى لحمه ودمه ، وشاع فى آثاره وبواكيره ، لكن عقله كان يتأبى على نفسه فلا يدغدغ رضاها بما لا يرضيه ، وكان الفن القصصى فى لبنان آخذا بالانتشار موضوعا أو مترجما ، وقد سبق الى هذا الفن رائد كبير هو ميخائيل نعيمه ثم نابغة خصب القلم هو الأديب كرم ملحم كرم الذى كتب القصة والرواية مستقلة ومسلسلة وعبر فيها عن الروح اللبنانية فى القرية والمدينة وصور الحياة فيهما بكل ما فيها من تناقض وملابسات وأنشأ من أجلها مجلة « ألف ليلة وليلة » قبل الثلاثين من هذا العصر ، وبعد هذه السنين لمعت أسماء قصصيين موهوبين كان فى طليعتهم خليل تقى الدين وتوفيق يوسف عواد ولطفى حيدر ونجيب العقيقى ورشاد دارغوث وأحمد مكى ورئيف خورى (١) ومارون عبود وغيرهم ممن جاءوا بعدهم ، فجددوا فى الفن وأجادوا بناء القصة كسهيل ادريس وجميل جبر ويوسف حبشى الاشقر ونبيل خورى وأمثالهم من الكتاب المطبوعين ٠

ولم يفت عمر فاخورى تتبع هذه الحركة الجديدة فى أدب القصة بلبنان ، وأكثر الذين شاركوا فى هذا الفن من الطليعة المبكرة كانوا من صحبه وأصدقائه ، وفى الوقت نفسه كان عمر يقرأ ما جد فى القصة العربية والرواية ويدعو المطبوعين من أدباء العرب للعناية بهذا الفن الذى استخف به بعض الأعلام وقد مارسوه ثم انطلقوا منه الى ما كانوا بسبيله فى التأليف والتحقيق أو السيرة والمذكرات ٠

ولئن انصرف عمر فى هذه المدة من حياته وأدبه الى المقال الذى

---

(١) من أقرب الاصدقاء لعمر فاخورى وقد تخطفه الموت بمثل عمره هذا العام ، وكان وفيا لذكراه فما أشد خسارة الأدب بفقد هذا الاديب قلما وسلوكا ونتاجا ٠٠

جمع بين الفن والأسلوب ان مقالاته قد احتوت إلصور القصصيـــة والتجارب النفسية حتى الموضوعات الجدية التى تناولت قضايا الحرية والحياة المتجددة لم تخل من سياق القصة الفنيـــة ، فيها النكتة العمرية وهذا ما كان يحبب الأذهان والنفوس فيها ويقرب معانيها الى الوعى والمفاهيم السليمة .

وما أروع المقالات التى تناول فيها فن القصص ، لايمانه بأنه يسد حاجة انسانية عامة لها شأن فى الحياة الأدبيـــة على اختلاف العصور والاجيال .. وعاب على أدبنا الحديث اهتمامه بنقل القصص الاجنبية التى لا قيمة لها غير الثمن الذى تشترى به ، وهذا الصنف من الأدب التجارى راج فى ديار الغرب ، وليس عندنا منه الا القليل ولو عاش عمر فاخورى فى أيامنا لشهد أسوأ ما راج فى الغـرب عندنا مترجما مشوها .

أما الروائع العالمية فى القصة والرواية والمسرحية فلا تنقل الى لغتنا بمثل السهولة التى تنقل بها تلك السخافات ، وقد عانى فى ترجمة بعضها الى العربية أو تلخيصه نفر من أعلام المفكرين والأدباء كطه حسين والزيات ومحمد عوض محمـــد وغيرهم فى مصر وبعض البلاد العربية ، وقد نهض عمر فاخورى بجزء من هـــذه الترجمة الدقيقة الصعبة فنقل تمثيلية لبيير ديكورسيل عنوانها «ابن الآخر» و « كرانكبيل » لأناتول فرانس غير نقله للعربية حياة غاندى لرومن روللان ، و « آراء أناتول فرانس» و «آراء غربية فى مسائل شرقية»، وسواها من منقولاته الصحيحة عن الفرنســية والانكليزية ونشر بعضها فى كتب ولا يزال بعض منها فى مطاوى الصحف والمجلات .

على أن فن القصة أخذ دوره فى أدب عمر قارئا وكاتبا وداعيا لضرورة الاهتمام بالحركة القصصية التى دبت فى الصحف والمجلات فاستبشر خيرا بمحاولات الموهوبين من بلاده على أن يستمدوا لفنهم صورا وأشكالا تتسم بطوابعهم ويستلهموا الحياة والواقع لتجاربهم ، فالقراء تشوقهم القصة من وجودهم وحوادثهم ، وقد سئموا المواعظ

المكررة فيما طالعوا من حكايات وروايات تعب التكلف والغلو فى تصوير أشخاصها وتهاويلها .

وكانت مجلة « المكشوف » (١) قبيل الأربعين من هذا العصر توجه عنايتها للفن القصصى الذى أخذ يشيع فى أدبنا الحديث ، فأقامت مسابقات للتنافس فى هذا اللون ، وقد فزت بتجربتى الفنية فى هذه المباراة الكبرى التى شاركت فيها أقلام ناضجة وفجة زاد عددها على الخمسين ، جرب أصحابها القصة فاشلين ، فلم يفتروا عن معاداتى لنجاحى ، وصار بعضهم من أعلام الأدب دون نتاج فى هذا الفن ، على أنى صنت اعتزازى بسبق لم تدركه المحاباة فى الجوائز اذ ظفرت بتحكيم النخبة من نوابغ لبنان، وبتكريم صاحب «المكشوف» وكنت مبتدئة بالقصة بعيدا عن منبتى فشعرت بتشجيع حفزنى للانطلاق والتمرس بهذا الفن الذى أحببته .

وأخذ عمر فاخورى يبسط لقرائه أدب القصة ويأتى فى مقالاته على حياة القصصين العالميين ومذاهبهم فى فنونهم وبصائرهم النافذة الى حقائق الأمور وطبائع الناس مما جعلهم يتفوقون ويبدعون ومما قال عمر فاخورى فى التكامل الفنى فى القصة نكتة من نكاته المستحبة « متى تشتبه على المؤلف وعلى قرائه حوادث القصة وأشخاصها أهى موضوعة مبتدعة أم هى قطع من الحياة الواقعية الحقيقية ؟ .. ذلك هو سحر الفن ...

وكان يحس هذا السحر وهو بين يدى جدته تحاوره وتحدثه بالفن الذى يستهوى الكبار والصغار فقال : «أيمكن أن ينسى أحدنا الأقاصيص التى أسعدت طفولته والتى تتوارثها الأمهات ، وهو لعمرى ميراث ثمين لا غنى للأم عنه بل من واجبها أن تتزود منه ،

---

(١) منشىء المكشوف الشيخ فؤاد حبيش من رواد التجديد فى أدبنا الحديث .

ولطالما فكرت فى جمع هذه الأقاصيص الطلية الشـــائقة فى كتاب بأسلوب سهل يقرب على قدر الامكان من الأسلوب الذى تروى فيه فلا ريب ان مثل هذا الـكتاب تكون له قيمة فى آدابنا العربية » (١)

ففى كتابه (الباب المرصود) نشر مقاله « كنوز الفقراء » وكان من حكايات جدته تناول احداها عمر فاخورى بفنه وأسلوبه وأسبـــغ عليها روعة الأداء والقصة ، فجاءت طرفة شائقة قال فيهـــا معجبا بالادب الشعبى عن العرب : ليس خلق عالم على هامش عالمنا هذا أو تصور وجود غير وجودنا وقفا على وحى الانبياء والشعـــراء فان للعامة فى هذا الخلق والابداع اليد الطولى ، فاذا كان فى الامر بعض الشك فان الشعوب تلتقى مع أنبيائها وشعرائها على صعيد واحد وان فى الأدب الشعبى أو «الفولكلور» كما يسميه الفرنجة طرائف شائقة ممتعة غزيرة المعانى سواء الأقاصيص والأمثال أو الأساطير والعقائد » .

وكانت سلوى الصبية الصغيرة تستمع لحكاية « كنوز الفقراء » وهى فرحة وجلة ، لأن فيهـــا البقرة المسرجة بالذهب تحمل كنوز الفقراء ، وهى تخشى هذه البقرة ، فقالت لأهلها اذا جاءتنى ونادتنى قومى خذى نصيبك يا سلوى فسأقول لها :

ـ انى أخاف لأنى صغيرة فضعى نصيبى على عتبة الباب .

لـكن أم سلوى ضمت صغيرتها الى صدرها وعوذتها قائلة :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

كانت هذه الطرفة الممتعة عند عمر فاخورى الذى صاغها بقلمه وفنه فأودعها كتابه «الباب المرصود» ذكرى الصغيرة (١) التى تزوجها عمر وهى فى نصف عمره ورباها على يديه ، حتى فقدها زهرة ريا وهى تتفتح عن أول ثمرة ، ولـما فجعه الموت بأفدح نكبة فى حياته

(١) مجلة الكشاف ص ٢٧١ .

(١) هى سلوى طبارة بنت خالة عمر وزوجه .

بكاها قلب عمر طويلا وانطوى على نفسه وعليها فى منزله بضعة أشهر منقطعا عن الناس وعن الكتابة لا عن الكتاب الذى كان فيه عزاؤه وسلواه ، فعكف على القراءة هاجرا دفاتره وأوراقه وفيها صور ابداعية قصصية استقاها من ينابيع الحياة حتى خرج من كآبته وفجيعته الى السوق والطريق ، دافنا همومه فى كفاح أدبى جديد ، وكانت له لفتات الى الحياة الشعبية بالأساطير الممتعة ، كان يعتزم أن يفيد منها .

ولعل أروع المحاولات القصصية التى وضعها عمر فى سطوره وصفحاته هى قصة حياته التى لم يكتبها هو وانما كتبتها المحن المتعاقبة ، حتى خطر له يوما أن يجرب الرواية الواقعية فأنشأ فصلين من روايته « حنا الميت » كانا بشارة ابداعية لتفتح عربى جديد ..

ولو أن عمر فاخورى القصصى المبدع تفرغ لهذا الفن الذى جرى سره وحبه فى عروقه لأعطى أدبنا الحديث آثارا لا تبلى .

وحين ترامت نفسه على ما تجافى عنه من قبل كانت يد الموت تدهمه بخطفة معاجلة ، هالت المستبشرين بما قدم من أدب زاخر بالفن والابداع .

الخطيب

لم تتغير لهجة عمر فاخورى وطباعه فى خطبه وأحاديثه منذ وقف خطيبا فى القضية العربية أول وهلة وهو طالب متحفز ومعلم صغير ، ولم يمض الا القليل على القاء بحثه العربى الأول فى البئر خشية السلطة الغاشمة التى كانت تلاحق الناقمين عليها النازعين فى إتجاههم نزعة استقلالية تحررية حتى انطوى الحكم الاسود وبرز فى لبنان والبلاد العربية استعمار غربى جديد قسم بينها الحدود والقيود فتصدت لطغيانه بحسب السوانح والظروف أقلام الأدباء والصحافيين ومنابر الخطباء الذين عرفوا كيف يهزون المشاعر القومية ويفتحون البصائر على ما حل بالشعب والوطن .

وبديهى ألا يجرؤ على ذلك الا رواد الفكر والحرية ممن أوتوا الشجاعة وألفوا العراك ، وكان بعضهم يجمعون بين الشعر والنثر فى خطبهم اذ يستلهمونها بأبيات تمهد للفكرة والهدف ، فيما يخاطبون به الجمهور .

وكان الجمهور على اختلاف وعيه ومنازعه يستمع للخطباء ويتلقى بالشوق والحماسة كلامهم ، وقد لعب الشعر القومى والخطابى دورا كبيرا فى تعبئة النفوس بالنخوة العربية وتغذيتها بمعانى الوطنية والمثل العليا واعادة الناس الى ماضى الأمة فى تحررها من الظلام والأوهام وبناء مجدها بالعلم والاخلاق والحرية .

فى تلك المحن والأزمات التى اخترعها الاستعمار لتعويق التحرر من التخلف والفساد راجت الخطابة العربية على اختلاف موضوعاتها فى الجامع والمدرسة ثم فى الجامعة والندوات ، داعية

للتربية القومية والتهذيب والاصلاح وكان عمر فاخورى الأديب المرموق والموظف الكبير بين الخطباء والمحدثين فى الندوات الفكرية والكشفية وفى الجمعيات الوطنية والخيرية ، فما تجافى عن دعوة لخطبة أو حديث ، فاذا وقف خطيبا بسط سحره فى النفوس ، والمنبر أو الموقف يهيىء للموهوب روحا تنطلق بما يريد ، وكان عمر فاخورى الذى تجافى عن الاطالة والاستطراد لا يداور فى خطابه أو يصطنع المؤثرات اللفظية فى معانيه ، فقد ابتدع أسلوبا فى الخطابة كما ابتدع مثله فى الكتابة ، وكان بسحر أدائه والقائه ينقل المستمعين من طور الى طور ولو كان تفكيرهم لا يرقى الى القمم ويستطيع بما أوتى من رهافة الحس وسعة الثقافة أن يرفع وعى الجمهور اليه ويجعله يشعر بوجوده فيصغى اليه بالأذهان والقلوب ، وما كان يخاطب الناس الا بما كانوا يفكرون ويشعرون ، وهذا سر تفوقه فى محاورة النفوس وكأنه أتقن منطوق البلاغة فيمضى بسامعيه الى ما يشاء .

ولا أذكر أن عمر فاخورى أطال خطابه أو قال كلاما مكررا حشد فيه الترادف اللفظى أو ذخائر المحفوظات لحين الطلب والحاجة ، بل كان يتناول فى خطبه وأحاديثه ما يموج فى المجتمع من شئون ومشكلات ، متحدثاً عن مواجد الشعب وأشواقه للتطور فى حياته وكفاحه وكأنه يسرد قصة يصب فى حوادثها الحقيقة والواقع ويشفق من التصريح بها ، فيجعل مستمعيه يدركون ما كان يعنى وماذا يريد .. وكل عبارة فى خطبه كان لها صدى فى الحياة تشد الحضور الى آفاق أبعد مما بين أيديهم وتشرق روح عمر فى خطبته فتصفو نبراته ونكاته ولا يتكلف اشارة او اثارة ليرى مواقع خطبته أو حديثه ، فالكلمات الصادقة اذا خرجت من القلب دخلت القلب دون استئذان ولم يكن التطرف على ثورته الصامتة من طبعه وسيرته ، فما تورط بفكرة نابية ولا أقدم على رأى يلقيه متعالما أو معلما ، على أن عمر فاخورى لم ينفرد فى تلك الايام بهذه الميزات

فى خطبه وزهوة أدبه ، فقد عرفت منابر لبنان خطباء متفوقين كان من ألمعهم فى عهد عمر وأبعدهم صيتا أمين الريحانى رائد الحرية والتجديد والطبيب نقولا فياض الذى كان يستهوى العقول بفيض بيانه وشعره وبراعة القائه ، ومنهم محيى الدين النصولى خطيب « الكشفية » والتربية القومية .

ولما تطورت الخطابة بتطور الثقافة والتعليم ظهرت المحاضرة والمناظرة فما استجاب لهما عمر ولو جربهما لأعجب القوم وأفادهم، غير انه لم يكن يتكلف ما ليس من ميله وشأنه ، لكنى ألقى فصولا نقدية وفكرية على مثقفين وجامعيين توسع فيها وتعمق ، ولا يزال بعض الذين سمعوا عمر خطيبا يذكرون مواقفه الوطنية والانسانية فيما تناول من موضوعات حية فى فكرتها وحوادثها ، فمن أروعها ما جاء فى خطبتيه « الحيوان والانسان » (١) و « اليتيم العربى »(٢) .

فقد ساءه أن يصير هذا المسكين كأنه علم من الأعلام أو مؤسسة عامة كلما وفر نفر من الصالحين عنايتهم السمحة على ما يسمونه ، اليتيم ليتخذ حجة للكلام او للاحسان ، فقال عمر : ان العناية بشأنه تغذية وتربية تتصل بالمبادىء الادبية والاخلاقية التى يدين بها مجتمعنا الحاضر ، وفى رأسها مبدأ الخير الذى أكب الحكماء والمفكرون على تأويله وتعليله ، ففرقوا بين العدل والخير وطال الجدل حول هذه القضية حتى بقيت معلقة او مختلفا فيها ولو استغنت البشرية عن هؤلاء الحيارى فى التفسير والتبرير لسنت قانونا هو أفضل من كل الخطب والشروح والحلول التى ينوء الضمير الانسانى بعبئها الثقيل منذ قام فى الدنيا أول حكيم أوداع الى الخير .

---

(١) مجلة الكشاف ١٩٢٧ .

(٢) أديب فى السوق .

ترى ، متى نلج باب المدينة الفاضلة التى لا يلهجون فيها بذكر اليتيم ؟ ـ حيث لا يتيم .

بمثل هذه الآراء والخواطر كان عمر فاخورى يخطب ويحاور ولا يتخلى عن دعوة لها منذ انفتح بابه الموصود على مصراعيه وهو خلفه يكتب ويتأمل حتى زهد فى الادب الصرف الذى لا يقرؤه الا القليل وهو الباقى للتراث والفكر والثقافة .

ولما زاحمت الصحافة الاذاعة كان عمر فاخورى من أقدر المحدثين فيها فكانت خطبه وخواطره تنصب فى سمع اللبنانيين وقلوبهم وعيا ومحبة وشعورا بالعزة كلما رأوا بأعينهم استقلال الوطن يستكمل شروطه ومقوماته « كشخص الحبيب تنحسر عن ملامحه الوسيمة عمة الخفاء ، وكان هواه كما قال او هوسه فى تلك الفترة بالاستقلال ما يسمى بالوحدة الوطنية التى لم تكن مقصورة عليه بل شاركه فيها أكثر اللبنانيين » ولن تكون من صنع الشعراء والكتاب الذين يدعون لها ، بل من نتاج مصنعين اثنين هما : الثكنة والمدرسة ، على ألا يقوما على العلة المزمنة المتمثلة بالطائفية (١) .

وحمل عمر فى ذلك الحين حقيقة لبنان فى رسالته العربية الاصيلة فكانت خطبه وأحاديثه تدور حول هذه الرسالة .

وكان يودع كلماته الثائرة « طعم الحقيقة التى قال عنها : انها ليست مرة وليست حلوة وان لها طعما خاصا هو طعمها » .

وقد يتساءل ناقد عما جعل عمر فاخورى يعد فى الخطباء ، وجوابه عندى ان ليس من شرط فنى للخطيب محتوم ، فمن استطاع من المثقفين وذوى الشخصيات الفكرية ، أن يخاطب الجماهير بما

---

(١) الحقيقة اللبنانية .

ينفعهم ويرضيهم على اختلاف وعيهم وأذواقهم وكان ذا رنة ومرانة فى البيان والأداء ، فهو خطيب ولم يخرج الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » عن مثل هذا التعريف للخطيب • وعمر فاخورى كان بهذا التعريف خطيبا ومحدثا من الطراز الرفيع ، وقد عصمت اللغة لسانه عن الزلل ورفده الفن والبيان بأطايب الكلام ، ولكم عرفنا خطباء ومحدثين اذا وقفوا أو جلسوا للكلام شقشقوا بأشداقهم ونمقوا العبارات بموضوعات لا تطيب ولا تفيد ولم يشفقوا على السامعين بالاطالة المملة والتكرار السخيف واللحن الشائن وقد أدركهم من عيوب الخطابة الركاكة والحذلقة والاشارات المسرحية ، وان الذين لم يشهدوا عمر خطيبا أو محدثا وانما قرءوا كتبه أوحت لهم هذه الخطب والاحاديث بتمثل شخصه تلقاءهم هادرا بعباراتها التى ترن فى صدورهم وهو يخطب بها من وراء الغيب وهذا عنوان صدقها وسر تأثيرها فى السامعين والقراء •

ناثر لا شاعر :

أكثر أدبائنا المعاصرين بدءوا حياتهم الفكرية والفنية شعراء أو نظامين ، فما كاد أحدهم يتعلم اللغة وقواعدها ، ويقرأ جانبا من المنظوم والمنثور حتى أخذ يجرب قلمه فى المحاكاة والتقليد ، فاذا كان مطبوعا قال الشعر عفو الخاطر وعلى سجية الالهـــام ولو لم يتعلم أصوله وأوزانه ، فطه حسين جرب نفسه ومواهبه فى الشعر والعقاد استهل أدبه فى نظم القوافى ، لـكن الاول تعلق بالنثر الذى أوتى فنه وأسلوبه ، وبقى عباس محمود العقـــاد مثابرا فى الصناعتين جامعا بين الموهبتين كالأديبين فى دمشق وبيروت شفيق جبرى وأمين نخلة ، أما المازنى ابراهيم فقـــد بدأ شاعرا ثائرا أنشأ مع العقاد وعبد الرحمن شكرى مدرسة فكرية تحررية أداروا فيها معارك النقد ليزحزحوا بحمـــلاتهم العنيفـــة مكانة الشعراء والكتاب المشـــهورين كشوقى والمنفلوطى وغيرهما ممن سموهم المتكلفين والمقلدين ، ولما أحس المازنى أنه لا يستطيع أن يقهر بشعره من ناوأهم تحول الى النثر كاتبا متفوقا يفلسف الحياة بأسلوبه وطبعه ومن خلال رأيه ومزاجه ٠

ومثل هؤلاء الرواد فى أدبنا الحديث كثير من الشعراء والكتاب جربوا نظم القوافى فى شبابهم ومطالع طموحهم ونبوغهم ثم عدلوا عنه الى غيره من فنون الادب أو تشبثوا بالشعر تحديا وتكلفا ٠

ولم تكن هذه الظاهرة مقصورة على الادباء العرب فقـــد عرفها الغرب فى آثار أدبائه الشـــيوخ والشـــباب ، فأناتول فرانس بدأ شاعرا وجورج دوهاميل جرب النظم فى تعبيره ، والنقاد يؤثرون ذوى

التجارب فى صياغة الشعر قبل أن ينصرفوا الى النثر وحده أو الى نتاج الموهبتين ٠

وعمر فاخورى بدأ حياته الادبية شاعرا مجددا ، ثم انصرف الى النثر الذى أبدع فيـه أسلوبا ووسع خواطره وأفكاره بعد أن عانى النظم مدة طويلة لم يسلس له فيها القياد ، فأيقن بأنه خلق ليكون ناثرا لا شاعرا ، وان جاء نثره فياضا بالشعور مواجا بروعة الفن وسحر البيان ٠

وقد أودع عمر دفاتره القديمة قصـــائد ومقطوعات من شعر صباه ، أحس فيها ضعفا وتكلفا وما كان عمر فاخورى فى أدبه الا صادق الموهبة بليغ التعبير ، غير أنه حفظ منظوماته فى كراريسه للذكرى والتأمل ، وكان فيها لوعة وحنين ووجد وتصوير ، طواها بين أوراقه « وتاب عن النظم توبة نصوحا فكان كما قال فيه كعاصر الخمر الذى ما كاد يختم زجاجة ليقربها قربانا على ما فيهـا « لذة للشاربين » حتى كتب عليها «خل» وألقاها فى زاوية المطبخ٠٠»

كذلك كان رأيه فى شعره حين نظمه وجمعه فى دفتره وجلس يتأمل فيه ويعيد النظر فى ألفاظه وقوافيه فلم تعجبه ، انه يريدها على نحو تعب فى سلوكه ، لقد نقح منظومه وبدل فى بعض معانيه لكنه لم يكن يريده أن يكون من النسخ المتشابهة فى بواكير الشعراء، ولو عدنا اليه اليـــوم لوجدنا فيه نزعة تجديد ، وذلك باستعماله أبياتا قليلة بالقوافى المتبدلة ، ولعل هذه الجدة فى نظر عمر جاءته من قراءة الشعر الفرنسى وكان مولعا به فدل بذلك على رغبته فى انتزاع الشعر العربى من القوافى المتعددة المتواترة ٠

وما أروع قصة عودته الى دفاتره العتيقة ــ ولم يكن مفلسا من النتاج ــ بل كان مشدودا الى ذكريات من بوادر أدبه فى ذلك النظم الذى عاناه ، ففى عام ١٩٢٦ مد عمر فاخورى يديه وعينيه الى أوراق له قديمة فقال : « جلست ذات يوم مضربا عن الاعمـــال والجهود

الباطلة ويداى تعبثان جادتين فى البحث عن لا شيء ·· وهكذا عثرت يمناى ـ ويسراى لا تعلم ـ بدفتر أسود صغير ، هو بعض ما بقى لى من عهـد الصبا ، أخذت فى تقليب أوراقه الرثة الصفراء فانبعثت منها رائحة القـــدم والبلى ، كأنى دخلت غرفة أحكم قفـل أبوابها ونوافذها وهجرت زمنا مديدا » ·

فما الذى رد عمر فاخورى الى أوراقه البالية الصفر التى وصفها فى مذكراته ؟ انه الحنين الى الصبا والشعر ورفاقهما وكل ما يعود به الى نشوته فى منظومه وتجاريبه فى هذا الاداء الذى يأخذ به أكثر المبتدئين فى الادب ، فلنستمع لعمر وهو يحدثنا عن دفتره العزيز : «دفترى هذا على ضآلة حجمه كالقدح الملآن لا تزيد على ما فيه قطرة الا طفح ·· ليس بين سطوره وهوامشه موضع ، فيه آراء وأبيات شعر وخلاصات كتب فى العربية وبعض اللغات الاجنبية » ·

ان هـذه السطور وما تلاها فى دفتر عمر تقيـم البرهان على عناية صاحبه بحفظ النصوص والابيات التى كانت تعجبه ، فيكتبها بدفتر صغير فى خلال مطالعاته ، ويعلق عليهـا ، وفى هذا الدفتر تحدث عمر عن تردده فى نظم الشعر زمنا خشية ألا يتسع له مافيه من خيال لكنه أقدم ··· »

وبعد أن كتب أبياتا معدودة من قصيدته الاولى ـ ولعمر بضع قصائد كتبها وهو ما بين السابعة عشرة حتى الثالثة والعشرين من عمره ـ بقى أياما لا يجرؤ على الدنو منها بزيادة أبيات فيها أو تغيير فى ألفاظها ومعانيها ، فكان ينظر اليها كما ينظر المحب الى حبيبته مع علمه بأنها غير تامة وأن فيها ما يجب بتره بحق وعدل ·

وتصور عمر نفسه تلقاء شعره « بعـــاطفة الاب أو الام أمام طرفتهما » فى الاسبوع الاول ، يعلمان أن شد العصائب على أعصاب الطفل الرطبة مما يقويها ، لكنهما يخافان أن يؤلماه ويسمعا بكاءه·· بيد أنهما بالرغم من ذلك سيقدمان بعد الاحجام وأنه مقدم على شد أعصاب طفله » ·

وكان طفل عمر مقطوعات شعرية فى كلمات موسيقية وصور مظلمة ، مضطربة المعانى والاوزان ، ومع ذلك عطف عليها عمر لأنها عبرت عن شعوره وخواطره فى صباه ومستهل أدبه ، وكان من عناوين قصائده : ذكرى الصبا ، اننى حزين ، خيبة الحياة ، الحنان فى البؤس ، أمة العرب •

ولما شد عمر أعصاب «طفله» فى تجاربه الشعرية كان مشفقا مترفقا ، أعاد النظر فيها ثم طواها مؤمنا بأشياء كثيرة منها انه سوف يجدد فى الشعر • وقد جعلته هذه الذكرى البعيدة يعقد مقارنة بين أبى تمام الشاعر العربى وبين «رينيه بازان» الكاتب الفرنسى اللذين اتفقا على بعد الشقة بينهما فى العصر والمصر ، على ان القصائد عند ناظمها والكتب عند مؤلفها هى كالابناء عند الوالد الحنون • «والقرد فى أعين والديه غزال» ولا أدرى كيف لم يذكر عمر فاخورى فى هذه المقارنة البارعة معلمه فى السخرية الادبية ونده فى حب الكتاب ، أبا عثمان الجاحظ ، الذى كان يعد مؤلفاته بمثابة أبنائه ، فقد خرجت من نفسه وعقله ولا يستطيع أن يفضل أحدها على الآخر •

واذ كانت تجارب عمر فى الشعر وذكرياته فى أيامها عزيزة لديه فقد عاد الى جمع ذكرياته عن الشاعر الذى كان فيه وضمها الى مقالاته النقدية التى تلم بموضوع الشعر من بعض نواحيه ، وكان عمر فاخورى قد نشرها فى أيام سعيدة من عمره ورآها ذات قيمة فى حياته وحده لا فى حياة الأدب على ان اكثر ما دار فى موضوعاته عنايته بالشعر ونقده ما وصل اليه منه ، فدل على ثقافته الفنية العميقة وذوقه المصقول ، وكانت سخريته الناعمة النافذة ترافق رأيه وتعليقه على الشعر الذى كان شائعا فى أيامه وعلى الطريقة التقليدية والمنبرية ، فيحتفى به القراء لا لما وجدوا فيه من صناعة فنية جمعت بين الانتاج والابداع ، بل لأنه كان يحمل صورا قومية وأحداثا وطنية فتنشره الصحف

فى صدورها كما تنشر اهم الأنباء والآراء في حوادث النضال والمجتمع ، على ان عمر فاخورى الذى أحب الشعر والحديث عنه متغنيا بروائعه وتراثه الأصيل متهكما فى نقده على ما كان يذاع فى الصحف أو يلقى فى السوانح والحقول « ليس فيه الا « طواحين ألفاظ » لا « حملة الالهام » الذين يسترقون السمع من عالم الغيب ليعودوا منه بأنغام ساحرة وقد ملئوا أعينهم من جماله ليخلعوه على أدبنا فلو لم يكن ذلك العالم موجودا لأوجده الشعراء حقا وصدقا لا النظامون الذين يملئون الورق حبرا والمسامع وقرا .

وتصدى عمر فاخورى فى مقالاته النقدية للشعر للحملات العنيفة فى عصره على التقليديين الذين لم يتزحزحوا فى صناعتهم المبنية على المحاكاة والترديد دون أن يشارك فيها أو يدخل معركة من معاركها فى لبنان أو على ضفاف النيل وكان عمر فى تلك الايام كثير المطالعة قليل الكتابة ، فلو شاء أن يكتب سيرته بنفسه لاستطاع بدون عناء اختصارها فى هذه الجملة الجامعة « مطالعات فى زاوية بيت » ، فان الكتب التى قرأها عدها أعظم الحوادث فى حياته وقد أتت عليه أعوام لم يقرأ فى خلالها الا دواوين الشعر ، عربية وأجنبية ، فأولع بالمقارنة بين الشعراء العرب والأجانب لاكتشاف أوجه الشبه أو الخلاف بينهم ، فلما وقع بين يديه شعر الياس فياض الأديب اللبنانى فى قصيدته « النجوم » عادت الى ذاكرة عمر فاخورى قصيدة « المجرة » للشاعر الفرنسى « سوللى برودوم » ، فأحس بينهما شبها عجيبا ونقل قصيدة « المجرة » الى العربية ، وفياض الشاعر الكبير كان مثل عمر فاخورى يحب الشعر الفرنسى ، فاذا هو يقتبس قصيدته النجوم من الشاعر سوللى برودوم وينسى أن ينسبها الى الترجمة ، فيأخذ عمر فاخورى بتلابيب فياض كاشفا هذا الاقتباس ، والنسيان ذاكرا فى صدده سبق «الريحانى الأمين» الى نقل اللزوميات المعرية للانكليزية ، فكان

ذا فضل كبير فى نقل أدبنا الى أدب العالم ، والريحانى نفسه لم يسلم من تهكم عمر وكان من أعز أصدقائه اذ رآه ينقل الى الانكليزية قصيدة « النجوم » لالياس فياض دون تحقيق فى أصلها ، فكأنه فى ترجمتها رد البضاعة الى أهلها دون أن يدرى ..

ومن عجب أن يدعى لنفسه(١) هذه القصيدة المقتبسة كل من الشقيقين الشاعرين اليـــاس ونقولا فيـاض وهما من كبـار الشعراء الذين اتقنوا الثقافة العربية والفرنسية .

ولم يكن عمر فاخورى متعنتا فى نقد الذين يقتبسون من ادب الغرب بأمانة ، فقد شجع صديقه الشاعر الشعبى عمـــر الزعنى أو « حنين » لقبه المستعار ، وكان الزعنى صديق عمر قد اقتبس فى صنعته الشعرية ترجمة لقطعة من أغانى « بيليتيس » للأديب الفرنسى بيرلوئيس جاء الاقتبـاس أفضـل من الأصل ، اذ استمد عمر الزعنى عنصرا غريبا تمثله وهضمه ثم زفه الينا وكأنه بضاعتنا ، وهكذا تحيا الآداب القومية فى الأمم (٢) ، فانها لا تعيش منطويا على نفســـها وخصائصها بل لا بد لهـــا من تخير ما يلائمها من أفكار غيرها ومن تطور الذين تقدموها فنا وعلما .

ولقد استحسن عمر فاخورى ابتداع الزعنى هجوا اجتماعيا كان يردده بالعامية البيروتية ويمثل فيه جوانب من حياتنا وتصويرا لأخلاقنا ، ترك ضجة فى السياسة والمجتمع ، ولا يزال النـــاس يترحمون على شاعر الشعب فيما تناول من تصوير وتشـــهير لمســـاوىء مزمنة وشوائب فاشـــية رمى الناس فيما يمسهم من حقائقها المؤلمة وهم يضحكون وليس على صديقهم الزعنى من حرج اذا كان استمد لفنه فى الهجاء الاجتماعى مادة من لحم المجتمـع

(١) من مقال رائع لفقيد الفن القصصى كرم ملحم كرم اللبنانى .

(٢) الباب المرصود ص ٤٢ .

ودمه فرفعت يده على القروح والجروح « ومن قال ان الفن طبيب جاهل دجال يخدع العليل عن علته »(١) .

ولا أدرى كيف تعلق عمر فاخورى بالحياة فى شتى معانيها ، فهو فى الشعر والنثر يلتمس صورها وأطوارها وما يعج فيها من خير أو شر ، لقد كره الجمود والجامدين ، على أنه لم يحمد للمتطرفين من المجددين صنيعهم فى قطع أصولهم من التراث الذى يربط الغابر بالحاضر ويتطلع الى المستقبل بآمال كبار ، ولعل عمر فاخورى فى طليعة النقاد الذين تلمسوا فى مطالع نهضتنا وحدة القصيدة فى مبناها ومضمونها والملائمة بينها فى الموسيقا اللفظية لتهيىء نفس المستمع أو القارىء الى ما كان فيه الشاعر وهو يعد قصيدته ، واذا كان يحبذ الاقتداء والاقتباس من الآداب العالمية لادخال التطور والتجديد على الشعر العربى الحديث فانه كان شديد الزراية على من يستخفون بوعى الناس ويدعون ما ليس لهم فى تعاطى الشعر وصنعه .

وبقى عمر فى حياته وأدبه مأخوذا بالشعر ناقدا لا شاعرا يقرأ دواوينه القديمة والحديثة و « يتلجلج الشعر فى خاطره ويتلعثم به لسانه ، ويهم به ثم تدركه رحمة ربه فيمسك ، معزيا» نفسه كلما دعى الى مآدب الشعراء بوقفة عند طرف المائدة أو على عتبة الباب كالمشدوه ، في عينيه رءوس السحر من ذلك العالم الآخر(٢) .

وقد تطول وقفاته وتأملاته فى هذه الساحة الشاسعة التى تقع فيها أشتات الجواهر ، وأصناف الذهب والفضة والخزف والنوى حتى سماها الأصمعى « ساحة الملوك » وكيف يهجر عمر

---

(١) عمر فاخورى فى مقدمته لحنين .

(٢) الباب المرصود ص ١٧١ .

هذه الساحة التى فيها يتبختر أحبابه من الشعراء وقد تفاوتت فيها السجايا والقرائح ورسخت التقاليد حتى تعقدت وأظلمت، فانفلتت من بينها مواهب ثائرة تلمتس الضياء والغذاء من الشمس والحياة ، وتستلهم أدب العالم فى طباعه وعناصره ، لتخرج على غراره شعرا عربيا حديثا يتقبله ذوق العصر ومزاج القـــارىء الجديد ، على الا يكون من نمط واحد متشابه النسخ والأزياء ، وهذا ما بحث عنه عمر فى مطالعاته الطويلة حتى وقف عند رفيق عزلته وشقيق نفسه « المتنبى » ، فلم يفارقه فى داء أو عناء بل كان يحدثه ويحاوره فيما قال أو تقولوا عليه ، حتى اسـتوقفه شطر من بيت له فى قصيدة مدح لأحد الأمراء قال فيها متغزلا بمحبوبة وهمية نظرية وكما كان يقضى العرف الشـعرى فى فاتحة القصيدة العربية :

« تناهى سكون الحسن فى حركاتها » فكشف عمر عن براعة المتنبى الذى مزج غاية الجمال بحركة السكون ، وقد أحس فى كلمات أبى الطيب اشارة الى «علم الاستاتيك» ، عند ذوى الاختصاص به من الغربيين الذين نشروا فى موضوعه كتبا ومؤلفات وكان عمر فاخورى ناقد الشعر لا يفوته التتبع فيها والتمحيص ، ولم يسبق عمر كاشف للمعنى الاغريقى الذى تهادى فى « تناهى الحسن فى حـــركاتها » .

كان فيلسوف اليونان زينون ينـــكر حقيقة الحركة ، فقـام سقراط من مجلسه ومشى ليدله على بطلان مذهبه قائلا : يا زينون اننى غير ساكن فأنا متحرك .. وكان زينون هذا معجبا ببطولة آشيل الذى مات تحت أسوار طروادة ، فتحدث عن السهم المريش الذى كان يطير من قوسه حتى وقع في التناقض اذ قال بالسكون لكنه نسى فلسفته تلقـاء الحركة وجاوز تلاميذه فى الحس ليكون ساكنا أو متحركا ، حتى جاء عمر فاخورى فاكتشف عند صديقه

المتنبى ما لم يكتشف الذين تزاحموا على ديوانه شرحا وتشريحا وتفصيلا وتأويلا دون أن يهتدوا الى مثل ما اهتدى عمر . وعمر نفسه راى عند معلمه الجاحظ فى احدى صوره الفنيـة ملامح سكونية فى القاضى عبد الله بن سـوار وقد أودعها الجاحظ كتابه « الحيوان » فدلنا أقوى دلالة على ايمانه بعبقرية العرب وسبقهم المختصين بالعلم الاستاتيكى الى ما ذهبوا اليه فى كتبهم وآرائهم ، فكتب عمر فى هذا الموضوع بحثا مطولا بلغت صفحاته الثلاثين ولولا ايثار عمر الايجاز الملىء لجاء كتابا كبيرا .

لقد جرب عمر الشعر ثم تاب عن نظمه حين أحس أنه لايمكن أن ينبغ فيه ، لكنه بقى مشدود الحس والنفس اليه يعد الصادق فيه أشرف الكلام واعلاه ، وكان الشعر أطوع لسجايا الملهمين المطبوعين فلو انقاد لعمر لراع قراءه بما وراء الفاظه وقوافيه من المعانى العميقة والأهداف .

واذا عددنا المقال كتابا صغيرا فان مقالات عمر فاخورى فى نقد الشعر وتحليله وتفسيره تعد كتبا ضخاما لو رددناها الى ماكان يصنع القدامى فى شرح الدواوين والتعليق عليها أو التحقيق فيها ، ولو قارنا ما فيها ــ وعمر فاخورى أتقن فن المقارنة فى أدبنـا الحديث ــ على ضآلة حجمها بما ظهر من دراسات أدبية ومنهجية، لوجدنا موضوعات عمر فى الشعر ونقده وآرائه خلاصة المطلوب فى أيامنا ، وهذه الناحية فى أدبه لا تزال خفية لم يكتب لها الانتشار لتحتل مكانتها في النقد الأدبى الحديث .

هذا هو عمر فاخورى النـاثر الذى لم يغـالط نفسه فى الحقائق ، فقد عانى الشعر وزاوله مدة وهو اشد ما يكون تعلقا به وشوقا الى بلوغ القمة فيه ، لكنه أحس بأن جناحيه لا يقويان على الصعود الى ذروة « الأولمب » فتحول الى نقد الشعر والتنقل بين تراثه وأصوله وبين ما جد فيه من تطور فى صياغته ومضمونه

ووحدة موضوعه والحاحه على أن يكون الشعر صادقا متقنا سواء أكان قديما أم حديثا ، وكان الفيض الشعرى الكامن فى أدب عمر لا يمكن أن يغيض فسرى فى خلال نثره وأسلوبه وهذا ما رفع قدره وأبعد أثره فى النثر الذى مثل أدبه الأصيل ، فكان كاتبا مبدعا فى روح شاعر ملهم ، نثر خصائصه فيما عبر عنه بمقالاته التى شفت عن ذاتية عميقة وموهبة فنية طاوعته فى معاناة الفكر والبيان ، وفيهما تجلى اخلاص عمر لحقيقة الأدب ورسالته ، وتجافيه عن كل تكلف أو تقليد .

الفصل الخامس

مقتطفات من أدب عمر فاخورى

ربيعى الأول

منذ أغريت نفسى بأن تتحدث عن الربيع فأجابت بعد لأى ، وأنا أكتشف أشياء وأشياء ، وكأنى لا عهد لى بها من قبل ففى جنة البيت أبصرت فجأة ، شجيرة مشمش (يزعمون أنها حضرتمولدى) أعجبنى منها ، أول وهلة ، هذا الزهر الأحمر الضارب الى صفرة، عالقا بأغصانها قناديل صغيرة مضاءة فى رائعة النهار ، لأطفال فى عيد ، لكن ما لبثت أن عرفت سر القناديل ، فاذا كل واحد منهما لحظة عتب ساخر ، ترمقنى به الزهراء شزرا ، وهى تقول : « الآن رأيتنى ؟ » الآن رأيتنى ؟ .. تقولها وهى تتعمد شدى ، كأنما يسوءها أن أتقدم ، فأشارك الأطفال أفراح عيدهم ٠

وخطر لبالى أن أذكر الشجرة ، أمسها القريب حين لم تكن سوى عيدان جرداء ممتدة فى الأفق القاسى أيدى تبسطها الفاقة فى السؤال ، لا لحم عليها ولا دم .. فغاظنى أنها صدفت عنى غير مبالية ، وطفقت ترفل في خيلائها ، كالصبية الحسناء ليلة عرسها، ترسل أخطر نظرة صادقة على حلتها متهادية ذات اليمين وذات الشمال ، وودعتنى بنفحة من أرج ساطع خيل الى أنها تقهقه به ضـــاحكة .

وسولت لى نفسى أن أثأر لها فخرجت الى الجنينة واخذت بخصر الشجرة السعيدة ، فهصرته وهززته ، فتساقطت المسكينة على رأسى وفوق كتفى وبين أقدامى ، زهرات يتامى ، وفيما انا

واقف أرجو ان أراها مجهشة بالبكاء اذا بها تتلملم بأسرع من لمح البصر ، كأن لم يك شيء ، فتصلح زيها الذى تشعث قليلا ، ثم تعود فى خيلائها ، مضاءة بأنوار الربيع .

قلت لنفسى وأنا أتكلف سرورا ظاهرا : « هلمى بنا ، فى هـذا اليوم المشرق من أيام البعث .. لنطرح الكتاب جانبا ولنمض الى الضاحية فنستقبل بشائر الربيع ..

فتبعتنى نفسى كالمرغمة ، وكنت أتلفت ورائى ، حينا بعد حين ، لأنظر اين هى .. ومشيت على مهل ، وأنا أسرح الطرف معجبا ، كأنى افتح على الكون عينين جـديدتين لم يسبق أن استعملهما أحد ، كمثل نافذتين فى دار مهجورة أقفلتا زمنا طويلا ، فلما آب الى الدار أهلها ، وفتحت النافذتان اخذتا تنظران وكأن الأرض بدلت والسماء غير السماء .

وفيما نحن فى الضاحية نبحث عن موكب الربيع ندق فيه البشائر ، اذ تجهم وجه الدنيا وتربد بالسحاب ، ثم انزل المطر علينا مدرارا .

وهكذا عدنا من حيث أتينا ، ونحن نقص على الناس أننا رأينا الربيع يدخل البلد متنكرا فى ثوب الشتاء ، مشمرا أذياله بين الوحـل والمـاء .

ـ ذهب ربيع وجاء ربيع .

قالت مارى ـ مارى قرطبا ، التى لا تعرف شيئا عن البروج لأختهـا :

ـ تعالى .. انظرى الى هذه الشجرة الزاهرة فى جنينـة الجيران .. سألنى : « ما هذه الشجرة ، يا مارى ؟ » أجبت : شجرة مشمش ، يا معلمى ، قال : أواثقة انت ؟ .. نعم . وأعاد على السؤال ثم أخذ فى الكتابة ليلة بطولهـا .. فمزق كثيرا من الورق ، قبل أن يملأ صفحة واحـدة .

حنا الميت

فصل من رواية لم تكتمل

١ ــ الجنـــازة

من يلقه ماشيا فى تلك الطريق الوحلة التى تصل « البسطة التحتا » بمحلة «حوض الولاية»(١) ، متباطئا كالمتردد او كالوجل ، لا يتمالك من السؤال : ماذا به ؟ أتراه يخاف أن يغادر أحذيته فى هذه المادة الرمادية اللزجة الضاربة الى السواد ، التى يلطخ المطر بها أزقة المدينة ، أم تراه يفتش عن شيء أضاعه ؟ يداه فى جيبى بنطلونه وهو بالسراويل أشـــبه لسعته وتكوره مذ عفت الايام على طيات المكواة ، محدودب الظهر ، محنى الراس ، موزون الخطى ــ كالمؤاجرة فى جنازة ، وكأن طربوشه القانى على رأسه الأشيب ، أحد أكواز الشمندر (٢) الرافلين فى ثياب جدد خلعها عليهم عيد الفطر السعيد أشكالا وألوانا .

ليس على وجهـــه النحيف سـيما الكآبة التى تســـتوقف الناظر لأول وهلة كأنما كشف له بغتة عن سر حزن بليغ أو خطب جلل .. لكن المتأمل البصير يلمح فى تلك الغضون السمراء أمارات السآمة والعياء الشديدين ، التى تكاد تقول : «مالى ولهاتين الرجلين أجرهما ، منذ أربعين عاما ونيف ، على هذه الأرض اللدود ، جرا؟ .. مالى ولهذا الجسد لا أفتأ أحمله ، غير عالم هل أتقاضى فى النهاية أجرا أم يذهب تعبى باطلا ؟ .. ومتى أحط هذا العبء الثقيـــل فترتاح أخيرا نفسى ؟ لو انطلقت الغضـــون فى وجه على العـــلوى

(١) من الاحياء القديمة فى بيروت .

(٢) يقال له فى مصر البنجر .

الأسمر النحيف ، لأسمعت مثل هذا الكلام ، كأن الرجلين اللذين يقتلان رجلا غريبا مر منذ هنيهة أمامه دون أن يراه ، أو كأن الجسد الذى يحمل نفسه ، متنقلا بها شرقا وغربا ، جسد جار له يزعجه كل ليلة ، صياحه وولولة امرأته وبكاء صغاره .

والواقع أن عليا عاش هذا العمر المديد لم يعرف لحياته غاية قريبة يوشك أن يضع يده عليها ، أو بعيدة يعلل صبره بالدنو منها: لم يعرف غاية يلهيه دركها أو السعى اليها عن النظر فى ذاته وفى هـذا الجثمان الذى يحمله هو كما تحمل السلحفاة بيتها . عاش كما يمشى الآن الى غير غاية ، لا يسرع فى خطاه كمن يخاف أن تفوته فرصة سنحت له ولن تنتظره طويلا ، ولا يقف مرة كمن يريد أن يملأ عينيه وفؤاده من شىء أعجبه .. كان يمضى فى سبيله لا يلوى على أحد . فاذا التفت يمنة لم يلتفت يسرة الا بعد حين ، اقتصادا فى الحـــركة .

فيم كان يفكر على العلوى ، وهو ينظر فى مواطىء قدميه ، من الطريق الوحلة ، اذ ليس ثمة غير هذا يديم النظر فيه ، وكأنه يقرأ فى كتاب ، متهجـــا حريصا على كل حرف من حروفه ؟ لعله كان يفكر فى الأرض ــ عدوه اللدود ــ التى ما برحت تجذبه بالرغم منه ، وهو يود لو ينطلق من أسرها ، فيطير فى الفضاء ، ويصبح من تكاليف هذه الحياة فى بحره ، وتبا لنيوتن مخترع الجاذبية كما كان يسميه ، فهو أصل البلاء ، وليس أجدر منه بأن يحشر مع الأطباء « مخترعى » الأمراض كما كان يلقبهم . ليت عليا كان نفسا فحسب ، اذن لكان الأمر هينــا .. ولكن ما العمل بهذه « الجثــة » بيت السلحفاة ، كما كان يقول فى أحاديثه .

ولعمرى ، هل الحياة دين لابد من قضائه ؟ فان عليا ، وقد عرف القروض بأنواعها ، لا يذكر أنه استدان فيما مضى ، شيئا من هذا القبيل .. وطالما حدث ذاته بالخروج من الدنيا الدنية

مختارا ، لا له ولا عليه ، فكانت تعوزه الجرأة على رأى بعضهم ، أو يعوقه الكسل على رأى البعض الآخر من صحبه ومعـــارفه ، أولئك الخبثاء الذين لقبوه بهذا اللقب العجيب ، حتى كاد ينسيه اسمه الأول ولا يعرفه كثير من الناس الا به ـ تعنى : حنا الميت . . وعلى كل ، منذ غلب عليه لقبه ، لم يفكر أبدا فى الانتحار ، كأن اللقب كفاه هذا العناء ، وأراح باله من همــوم النقلة ، حنا الميت فكيف تريدون يا رعاكم الله ، أن يموت الرجل مرتين ؟ . .

ولم يشعر على العلوى · الا أنه دائر فى محوره كرحى مستطيلة، طربوشه الأحمر على قاب ذراع ، فى بركة من الوحل وهو بين صبيين بثياب العيد ، فى كر وفر ، وطرد وعكس ، يتجاذبان أطراف جاكته ويضحكان ·

عاد على العلوى أدراجه ، والظلمة آخذة فى اخفاء معالــــم الأشياء . وكان فى مشيته أبطأ من ذى قبل ، يهم ، كما دنا من القنديل الذى يضىء فى عطفة الطريق ، أن يقـــف مستبشرا بهذا الظل الأمين يصحبه لحظة ثم يغيب فى الجدار . ومن رأى الرجل وظله ، هذا يزحف وذاك يمشى ، خيل اليه أنهما على العلوى وحنا الميت ، كأن الواحد صار اثنين كى يأنس بعضه ببعض فى وحشة الطريق . لكن حان ميعاد الرجوع الى البيت ، فأسرع على وظله في خطوهما ، وقد دار بينهما حوار ذو شجون ، اتهم فيه على ظله اللاصق بالأرض ، بمساعدة أعدائه على الكيد له ، لنفسه العلوية . وعبثا حاول المسكين أن يعدو كى يطأ عنق هذا الماجن ، تشفيا من ظلم المادة . . فكان الظل تارة خلفه وتارة قدامه ، منقبضا طورا وطورا منبسطا ، حتى أعيا خبطا ولبطا وبلغا البيت .

اذا كان عامة الناس يعرفون فى كل سنة من حياتهم يوم سعد او نحس ويذكرونه بالذكريات الحسنة أو الســـيئة ، فعلى لم يعرف الا أعواما متشـــابهة ليس فى أحداثهـــا ما يخصه بالذكر ،

الخير أو الشر . واذا كان عامة الناس لا يعنيهم من سنيهم الا ذلك اليوم ، طارحين سائر الأيام كما يطرح المسافر الأمتعة المثقلة المربكة التى لا فائدة منها ، « فعلى » لا يدرى الا ان الأقدار حملت كتفيه أربعين عاما بكل شهورها وايامها : كالمسافر الذى لم يحمل الا سقط المتاع ، غير عالم أين ومتى يحط الرحال . وكان يسميها . الأربعين خريفا . نكاية ب . الأربعين ربيعا .

ومشى حنا الميت ، محدودب الظهر ، محنى الرأس ، موزون الخطى ــ وقد خيل اليه ، بمثل لمح البصر ، أن يمشى فى جنازة نفسه وانه عما قليل سيقف ، متقبلا التعازى ..

وفى صبيحة اليــــوم التــالى كان فى فراشه يتلهى باستعادة ما رآه فى الحلم ، تلك الليلة عما ينتظره فى نهاره الجديد ، اذ أتوه برسالة قرأ على غلافها هذا العنوان :

بيروت : برج أبى حيدر

جناب . المرحوم . السيد على العلوى المحترم :

فلم يفض على الغلاف ، واسترسل فى تفكيره هنيهة وهو يعبث بطرف الرسالة متلطفــا ، كأنه يفرك اذن حبيب متجن ، ثم قال : يحب المزاح .. لكن الله ، ما أشبه مزاحه بالجد ..

وأغمض عينيه مبتسما برؤيا حلمه الرغيد .

من مقدمة الشعر الشعبى للزعينى

صديقى حنين . (١)

لا أحييك وأنا كل يوم أحييك ... وبعد فما اخالك نسيت كلمة من (رينان) قرأناها منذ أيام فى كتاب مختاراته : « الأدب الحق فى زمان ما ، هو الذى يصور ذلك الزمن ويعرب عنه .. كلمة جامعة من فصل قيم فى حقيقة الأدب وعلاقته بالعصر – فى الأصول التى منها يستمد ميزات الجمال والتأثير والبقاء » .

وهذه قصائدك بمبانيها ومعانيها وأغراضها ، لن تضيرها تلك اللهجة الوسط بين الفصحى والعامية ، بل انها فى هذا الثوب المنوع الألوان البهيج الزى لأحسن استيفاء لشروط البلاغة فى المعنى والفصاحة فى التركيب ، من تأليف كثيرين من أدباء العصر الذين يحيون فى منظومهم ومنثورهم على هامش الحياة ، فقصاراهم اذن أن ينطرح « أدبهم » جنة على هامش الأدب الحق الذى لا يصدر ، سواء أكان فصيحا أم عاميا ، الا عن مورد واحد .

أما الجنة فيبالغون فى تنميتها وتزويقها وتأنيقها ، لكنه « تواليت » الميت الذى لن يخدع طويلا ، لن يخدع فى صفوفنا هذه الفئة الفتية التى تطمع فيما هو خير من نسخ الاقدمين واعسر من تقليدهم ، وتطمع الى ما وراء صب الالفاظ فى القوالب الجاهزة .

هذه الجنة الخراب – وطننا – بما يسمع فى جوه وفى بحره ، على أطواده وانجاده ، ببواديه وحواضره ، وحول غدرانه الراكدة

(١) هو الاسم المستعار للشاعر البيروتى الشعبى عمر الزعينى .

وسيوله الراكضة ، من همس وقصف ، وتهليل وعويل ، وحفيف وعزيف ، وصيحات وأصداء .

وهــذه العروس النائحة ـ حياتنا ـ بما فيها من مسرات تعقب حلاوتها مرارة الاحزان ، ومن آمال خائبة لا ترضى استسـلاما للقنوط ، ومن المخازى المتلبسة بالشرف ، والشرف الأشبه بالعار . ومن سيوف فى مغلولة بأيد مغلولة .

وهــذه الغــانية المهجورة لأنها لا تعرف الدلال ـ عاميتنا ـ بنكاتها الطريفة وحنكتها الحصيفة بحقائقها الجارحة وأسـاطيرها الساذجة ، وبمولدها ومحدثها من أوضــاع ومفردات دقيقة الدلالة ، وتراكيب وأساليب طلية مأنوسة .

وهذه الشجرة الشرقية الغربية ـ ثقافتنا ـ بما تحمل من هدى الى حسن الاختيار ، ومن حث على فضل الانتقاد ، ومن توفيق الى ثواب الاصلاح ..

تلك جميعا أيها الصديق ، هى الينابيع التى تفجرت بأغانيك الجميلة وضعا ، الرقيقة لحنا ، الرفيعة مقصــدا ، مستقر الحقيقـة وملعب الخيال ، ملتقى الطبع الصادق والصنعة الجيدة ، وهل أدل على ذاك من اعجاب العامة والخاصة بها على السواء ، وطربهم لها فى كل الظروف وبكل ناد ؟ ..

فرنسا الحرة حركة ثورية

من يقل فرنسا ـ
يقل : ثورة ...

آيما كاتب أو باحث يتصدى للكلام عن « حقوق الانسان » . وعلى المدى الذى اجتازته هذه الحقوق ، سواء فى مضمار العلم النظرى أم فى مضمار التطبيق العملى ، فلا مندوحة له عن ان يخص الشعب الفرنسى بفصل من أشرق فصول التاريخ وأروعها وأبقاها على الأيام ، والا فذلك الكاتب أو الباحث بعيدا عن احترام نفسه وعن انصاف الحقيقة ، ولنقل دفعة واحدة دون أن نخشى لومة لائم أو تهمة متهم بالاسراف والشطط ، ان امرأ هذا شأنه انما « يظلم » عامدا أو متعمدا ، الانسان وحقوقه ، والعلم وكرامته .

لسنا نزعم ان الشعب الفرنسى ابتدع حقوق الانسان المدنية والسياسة من العدم ، ولا أنه ارتجلها بين بكرة وضحاها ارتجالا ، فالمدنيــة الحقــة لا تعرف هــذه الاثرة الجنســية التى تريد النازية الضالة المضلة أن يوصم بها الفكر البشرى أشنع وصمة » ، وان الحــكماء والفلاسفة والأنبياء والرسل ، على اختلاف المواطن والنحل، نادوا بحقوق الانسان من أقدم أزمنة التاريخ ، ودعوا اليهــا ، وليست مراحل التمدن الانسانى سوى خطى ضيقة تارة ، وتارة واســعة ، مترددة تارة وتارة ثابتة ، نحو اقرار هــذه الحقوق فى المجتمع بأقرب ما يمكن الى الكمال واكثر ما يمكن من الشمول ، كأن البشرية تسمو الى مثلها العليا فى سلم لولبى ، أجل لكنه سلم ذاهب صعدا ، على كل حال .

أقل ما يقضى الانصاف أن يقال ويجهر به ، هو ان الشعب الفرنسى كان سباقا الى اعلان حقوق الانسان السياسية والمدنية بمدلولها الحديث ، فى وجه العالم قاطبة سباقا الى تأييدها ونصرتها فى جهد تقطر منه صحائف التاريخ دماء شهدائه وأبطاله ٠

قد سبقت الثورة الفرنسية وتقدمتها زمنا ، ثورات فى بلاد اخرى ، لكن لم يكن لاحدى هذه الثورات المزية العالمية الانسانية التى اتسمت بها ثورة ١٧٨٩ وما تلاها ، فالى الأمة الفرنسية بالدرجة الأولى ، يرجع الفضل فى أن حقوق الانسان المدنية والسياسية داخلت الضمير الانسانى حتى أصبحت جزءا متمما له ، عريقا فيه ، وجاوزت طور الاوضاع السياسية والحكوميه ، لى تصبح أسلوب تفكير ونهج حياة ، للأفراد والأمم على السواء ٠

ان الشعب الفرنسى شعب ثورى بأوسع معانى الكلمة واسماها ، شعب « تقدمى » وكأن هذا الشعب يمضه ويحز فى نفسه ، عصرا بعد عصر ، وجيلا اثر جيل ، أن يرى البشرية فى سباق تطورها الفكرى الاجتماعى السياسى ، تتسكع فى مكانها ، تحرك قدميها دون أن تخطو خطوة ، فهذا الشعب يدفع ويدفع العالم معه بعنف ، الى الامام ٠٠ ان الشعب الفرنسى يحمل على كاهله أعظم تراث ثورى عرفه التاريخ ٠

واذا ما ذكر هذا التاريخ ثورات ١٧٨٩ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٧١ فلن يجد بدا من أن ينوه أيضا بثورة الجنرال « دى غول » و « فرنسا الحرة » على الرجعية اينما ثقفت ، وبأى مظهر ظهرت ، سواء فى فرنسا نفسها ، أم فى العالم بأسره ، اعلانا لحقوق الانسان منفردا ومجتمعا ٠ وما يدرينا ، فقد لا تكون هذه الحركة الفرنسية الحرة ، فى تراث فرنسا التقدمى الانسانى ، آخر حلقات السلسلة ٠ فان من الشعوب من يفرض عليه التاريخ ضروبا من المهام لا مناص له من انجازها ٠

رسالة لبنان

ولعمرى ، أيحتاج لبنان ـ لبنان كما نعرفه قطعة من جغرافيا وفلذة من تاريخ ـ فى أن يتســـلق ذروة من ذرا الزمن ؟ والى أن يضرب فى مسافات الأرض والسماء ، فيجيل أنظارا ثابتة أو حائرة، فى ظلمة الماضى او غيب المستقبل ، فى الآفاق القريبة أو البعيدة ٠٠ ترى أيحتاج لبنان الى ذلك النصب الشديد ، المقعد المقيم ، كى ينتهى به الأمر الى أن يقول فى سره وعلى رءوس ـ الأشهاد : « أنا صغير ، جد صغير ٠٠ صغير جغرافيا ، وصغير تاريخيا ؟ » لقد رأيتم الآن ان لبنان لم يكن ، كى يقولها ، بحاجة حتى الى المقدمة الملطفة التى مهدنا بها لهذا الحديث ٠ وسترون عما قليل أن تلك الكلمة ليست مما يقال قولا ، بل هى مما يهتف به هتافا ، فلبنان منذ كان ، لم يقف على ساحل هذا الأبيض المتوسط ، بازاء مدنياته القديمة والحديثة ، كما يقف الصياد الذى دهمته العتمة ولم يعطه البحر سمكة واحدة ٠٠ لا ، ولكنها قصة شعب من الشعوب ، ما كان صغر جغرافيته وتاريخه ليكفه أو يمنعه عن أن يعطى العالم ، فى عصر من عصور تمدينه ، أداة التخاطب المثلى ، وأساليب العبادة الفضلى ، بل نذهب الى أبعد من هذا فنقول : لعل صغره فى رقعة الأرض وفى زحمة التاريخ ، كان حافزا ذلك الشعب ، دافعا اياه بعزم لا يغلب ، الى الأخذ بضرب من ضروب العظمة أو السمو أو التوسع ، يكفى به طرح ذاته ويسد عوزها ٠

وهكذا رأينا لبنان يتبسط سفنا ومدنا ، ويتسامى آلهـة وهياكل ، ويتوسع بالحرف والفكر ٠ ومن غاياته المقدسة كان يشيد معابده الذاهبة صـعدا ، ويبنى مراكبه الذاهبة بعيدا ، كان له من ضيق ساحته ، وصغر حجمه ، عند المسافة ثأرا فلن يقر له

قرار حتى يدرك ثأره ، مقربا الأبعاد جامعا الأضداد ، واصلا قطيعة المادة والروح على السواء ٠

ليست الثقافة فى بلد من البلدان ، أو رسائلها فى شعب من الشعوب لترتجل ارتجالا ، ولا مما يسن فى ضجة المجالس والمجامع ، ولا مما تحدس به مخيلة شاعر أو ينضج به ذهن حكيم ، ثم يفرض على الوجود فرضا ٠ فالحياة نفسها (والتاريخ الذى يحكى حكايتها) ليست سوى حوار لا ينتهى بين الانسان والطبيعة ٠ ويندر أن تكون الكلمة الأخيرة فى هذا الحوار لهذا الكائن من لحم ودم ٠٠ حوار لطيف تارة ، وتارة عنيف ، مضطرد أو منعكس ، فى صراحة أو جمجمة ٠٠ كزقزقة العصفور ٠٠ ويهمس وسقسقة الجدول ، كاصطفاق الموج وتقصف الرعد ٠٠ يهمس همس النسيم أو يدوى دوى البركان ٠

لبنان ملتقى السبل المتفرقة ، ومعترك الأمم المتنافسة ، ومزدحم الثقافات المتقاطعة ٠ ما من قوة فى الارض تستطيع أن تغلق ساحله الغربى ، هذا الباب المفتوح على مصراعيه للأبيض المتوسط ، من مدنيات وشعوب يعطيها ويأخذ عنها ، ثم تقذف به تلك القوة واحة غريقة فى الصحراء ، كذلك ما من قوة فى الارض تستطيع أن تسلخه عن هذا الشرق السامى الذى وصلته به ، منذ كان التاريخ بل قبل ان يكون ، وشائج دم ولغة ، وتقاليد وأساطير وعبادات وثقافات ، ثم تقذف به تلك القوة جزيرة عائمة فى الأوقيانوس ، سيظل لبنان حيث هو ، وحيث كان ، من الطبيعة ومن التاريخ صلة وصل بين الشرق والغرب اللذين يلتقيان فيه ، واذا صح أن ثمة مستقبلا قريبا أو بعيدا لن يعرف الأثرة القومية وما يلازمها من مظاهر الطمع والفتح والغلبة ، ولا التحريم الفكرى وما ينشأ عنه من تعصب على اختلاف أنواعه ، فقد كانت اذن ثقافة لبنان هى المثلى ، ورسالته فى الدنيا هى الفضلى : ثقافة تمازج ، ورسالة تواصل ٠

ولعل أكرم ما يصدر لبنان من بضاعة ، أبناؤه فى النواحى الأربع من الأرض ، بناة المدن والسفن المخاطرون غير مغامرين . المثقفون طبعا ، وتطبعا ، المحافظون فى غير تزمت ، المجددون دون تعسف ، مخترعو الأبجدية وحضنة العربية حديثا ، أبناؤه السمر الميامين ، حملة رسالته الثقافية فى العالم .

سئمت نفس « بودلير » الشاعر الفرنسى فطفق ينقلها من قطر الى قطر . وهو يمنيها بالنعيم والطمأنينة وهى لا تزداد الا قلقا وملالة ولهفة الى الرحيل . وكان لا يفتأ يسألها فى احدى قصائده الثورة : « الى أين تريدين يا نفسى ؟ » .. فلما فرغت حيلته ونفد صبره اجابت قائلة : « حيثما كان ، ولكن فى خارج هذه الدنيا » ولبودلير قصيدة هى آية فى الابداع عنوانها « الرحيل » قص فيها قصة تلك النفس الظامئة أبدا ، ووصف جهوده للفرار من ذاته . فقد عاد الشاعر بالفن والجمال والطيوب والموسيقا ، لانها على حد قوله « لقلوب أبناء آدم افيون الى » ولكن لم يجده عياذه بها جميعا . فلجأ الى الحب والدين ثم جرب كل الوسائل التى اهتدى اليها البشر لتنويع اللذة وارواء النفس ، فاذا بالسعادة فى مراحل هذه الهجرة الكبرى رغم بهجة الطريق ، سراب خادع لا يتلاشى فى أفق الا ليظهر فى افق أبعد فأبعد . وأخيرا عرف « الافيون العظيم » وله كتاب فى وصف الجنات ، لا جنات عدن ، بل « جناته المصطنعة » فقال لنفسه : اذا كان النعيم فى الموت ، فى الموت وحده فليكن المرحلة الأخيرة يا نفسى .. وهنا يلتقى بودلير وافيونه بالبوذيين و «نرفانا» هم لتمام كروية الارض ... وان قوافل البشرية المتنقلة من أزل الآزال الى أبد الآباد ، فى سبلها المختلفة ، لتقف جميعا عند غاية واحدة مزدحمة على عتبة الباب المرصود ، حاسبة ان السعادة الكبرى والطمأنينة العظمى خلف الباب متسائلة فى حيرة ولهفة ـ ولكن من يا ترى ، يفك الرصد ؟

الأدب فى مدرسة الكشاف

أكثر أدبائنا – ولا أغالى – حقيقون ان يكونوا كشافة قبل أن يصبحوا أدباء ، الكتاب منهم والشعراء • بل انى اذهب الى أبعد من هذا فأقول : من الواجب عليهم اذا ارادوا حقا ان يكونوا كتابا وشعراء أن يجتازوا أولا مدرسة الكشاف ، فانهم فى هذه المدرسة قد يكتسبون الصفات والمزايا اللازمة لكل أهل الفنون ، أو ينمون هذه الصفات والمزايا ان كانت كامنة فيهم •

لو شئت يوما أن أتمثل الأديب فى بلادنا أو أن أتخيل نموذجا وسطا لأدبائنا ، لما قامت فى ذهنى الا صورة واحدة هى صورة رجل من ورق وحبر ، ولا نكاد تجد فرقا الا فى لون الحبر ونوع الورق •

فى مدرسة الكشاف يتعلم الأديب – ان شاء الله أن الطبيعة والحياة والناس أشياء لها وجود حقيقى ، ولها قيمة فلا تعد العناية بها عبثا ولهوا وانفاقا للعمر على غير طائل • وفيها يتعلم أن الحياة فى الطبيعة ومع الناس (على الأقل بقدر ما يعيش فى الكتب) حياة جديرة بأن يحياها ، حسبه منها انها تحول دون مسخه رجلا قرطاسيا بل حسبه منها انه اذا لم يقدر له أن ينفع بأدبه فقد انتفع هو بعمره •

لا بأس •• لا بأس فى ان يظل « الأديب » رجلا من لحم ودم •

كيف ينهض العرب ؟

عنوان كتاب فى خمسة فصول ألفه أديب العرب عمر فاخورى فى حدة حماسته للثورة على من ظلم الأمة والعروبة فى عهد العثمانيين وحرم المحكومين حريتهم وحقهم فى الحياة اللائقة ٠

كتب الأديب البيروتى هـــذا المؤلف وهو يتدارس مع أنداده ورفاقه فى الثـورة أسـباب النهضة العربية ورأيه فيها ، غير أن هذا الكتاب أو الكتيب القيم قد اختفى من بين أوراقه فى تخوف أهله على حياته فبقى ضائعا يتفقده اخوانه وهم يتفقدون آثاره ويتناولونها بالدراسة والتحليل حتى ظهرت (مجلة الفكر الجديد) فى بيروت ـ لبنان عام ١٩٦٨ وفى العدد الثانى منها نشر القسم الأول من هذا الكتاب المفقود الذى زعمت المجلة بأنها (عثرت عليه بعد جهد جهيد) (١) ٠

وبديهى وأنا أتتبع عمر فاخورى فى حياته وآثاره أن أبادر الى هذه الصفحات فأقرأ ماجاء فيها متسائلة متأملة ، وتأتينى الاجابة من الاعماق بأن يتصـــدى أحد الناشرين العرب لطبع الكتاب (كيف ينهض العرب) وحينئذ يكون لكل حادث حديث ، فقـد يتناوله النقد والتمحيص برأى جديد أو بنظرة طويلة فيما تناول من حياة العرب وأخبارهم

---

(١) الفكر الجديد ص ١٢ العدد ٣ حزيران ١٩٦٨ ٠

وأسباب نهضتهم بعد التخاذل والاضطراب الذى أدركهم في أعقاب الحكم العثماني الذى أهمل شأنهم واستهان بقوتهم وتراثهم ، فكان جزاؤه السخط والتمرد .

ولا ريب فى أن المستقصى لسيرة عمر فاخورى وتطور تفكيره ومسيره يجد فى كتابه المفقود (كيف ينهض العرب) مجالا للنقد والتفسير والتساؤل عما جاء فى محتواه وعن طريقة الأداء التى أتقنها عمر فى نضج تعبيره وفيما أوتي من بلاغة وجزالة ولم يكن هذا الأداء فى تأليف الكتاب ليدل على صاحبه في بواكير أدبه وتجاربه .

ومهما يكن الأمر فالكتاب أو الكتيب جدير باعادة طبعه ونشره ليتسنى للقارىء والناقد الوقوف على ما جاء فى محتواه ، فيرى بداية عمر فى أدبه ورسالته التحررية وبواكير تعبيره .

وهذه سطور من أحد فصوله تحت عنوان « الثورات والثورة الفكرية »

ان أعظم عمل يقوم به المفكرون فى الأمة العربية أو بالاحرى أول واجب عليهم هو أن يحدثوا فيها ثورة فكرية تدريجية تنتهى بتشكل ديانة جديدة ، لا قيام لأبناء الضاد الا بها هى « الجنسية العربية » ليصيروا مستعدين لتحمل قسوة ناموس الحياة العام .

الحياة جهاد وقوة الحياة تكسب الحق فيها .

مؤلفات عمر فاخوري

١ ـ كيف ينهض العرب ؟ ١٩١٣

٢ ـ آراء غربية فى مسائل شرقية ١٩٢٥

٣ ـ الباب المرصود ١٩٣٨

٤ ـ الفصول الأربعة ١٩٤١

٥ ـ لا هوادة ١٩٤٢

٦ ـ أديب فى السوق ١٩٤٤

٧ ـ الحقيقة اللبنانية ١٩٤٤

٨ ـ حجر الزاوية ١٩٤٦

الترجمات

١ ـ حياة المهاتماغندى ١٩٢٤

٢ ـ آراء أناتول فرانس ١٩٢٥

٣ ـ كرانكبيل ١٩٢٨

٤ ـ الابن الآخر ١٩٢٩

المصادر والمراجع

مؤلفات عمر فاخوري
ترجمات عمر فاخوري
مصادر الدراسة الأدبية ـ ليوسف أسعد داغر
جدد وقدماء ـ لمارون عبود
أعلام اللبنانيين ـ لمارون عبود
من تراث عمر فاخوري ـ لرضوان الشهال
الثمالات ـ لصلاح اللبابيدى

الصحف والمجلات

جريدة الميزان
جريدة بيروت
جريدة الأحرار
مجلة الكشاف
مجلة الأديب
مجلة المكشوف
مجلة الرسالة اللبنانية
مجلة الثقافة الوطنية
مجلة الطريق
مجلة الكاتب المصرى
مجلة المقتطف

فهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع	

الفصل الخامس